سنا الصمت

حول افريقيا البرتغالية

خديجة صفوت

ستار الصمت

حول إفريقيا البرتغالية

إعداد وتعليق

حمدي حسن صفوت

إهـــــداء

الى روح فرانز فانــون ...

« يا أيها الكتاب إن مادة الكتابة هى الإنسان
وهدفها منحة الحرية والخبز... والكتاب الجيد ».

من نداء المؤتمر الثانى
لكتاب اسيا وافريقيا

تمهيد

إن عصرنا الراهن هو عصر انهيار النظام الاستعمارى ، وعصر انتصار الشعوب ، وهو عصر انبثاق دول جديدة متحررة تعمل للسلام فى كل من آسيا وأفريقيا والعالم ، وهو بالتحديد عصر نهضة أفريقيا . هذه القارة التى ظلت ترسف فى أغلال الظلام قرونا ثم اندفعت شعوبها اليوم تنتزع حريتها بحد السلاح بعد قرون من العسف والهوان حتى يمكن أن يقال أننا نشهد عهد انبثاق افريقيا . ولا يشك أحد اليوم — حتى المستعمرين أنفسهم — أن قضية الحرية فى أفريقيا منتصرة — ليس لأننا نرغب من أعماق قلوبنا ، ونرجو لها النصر ، ولكن لأن جميع الدلائل تشير إلى ذلك وتؤكده .

وإذا كان الإستعمار يتضدع ويختنق ليموت ، ولا سبيل لانقاذه فى جنوب أفريقيا وجنوبها الغربى وانجولا وفى موزنبيق ونياسالاند والروديسيتين وأفريقيا الاسبانية والجيوب الأخرى ، فإنه يبدى ضراوة واستماتة متزايدتين ضد تيار التحرر والتطور الزاحف .

وإذا كانت الجزائر هى أرض المليون شهيد ، فإن انجولا وموزنبيق والجزر الأخرى من مستعمرات البرتغال هى أرض الشهداء الذين لم يحصى أحد عددهم بعد .. أرض الصراع الرهيب الذى لا يفتر . وليس من قبيل المصادفة أن تكون أنجولا والجزائر هى صلة المعونة الملموسة لسحق الاستعمار فى القارة الأفريقية الناهضة ، فان قضية أنجولا تشبه قضية الجزائر . وأن كليهما واجهتا الاستعمار ضاربا هرما مضعضعا متشبثا بخرق وحماقة بأحلام أمجاد قديمة عفى عليها الزمن ، ورغم أن قضية الاستعمار

خاسرة على أى وجه ، فقد جعل الاستعمار خطته الرئيسية هى تحطيم الأساس الثقافى والمادى لكينونة الأمة المستعمرة ، واعتمد على القوه وأنكر أبسط الحقوق الإنسانية ، ومارس الإبادة الجماعية وأستجلب المستوطنين البيض ليحلوا محل الافريقيين ، واتبع أساليب القسو الوحشى بلا حساب ، وأخيرا حاول بعث الفاشية بعد هزيمتها عاليا ، وإدانتها بصورة نهائية ..

غير أن الفرق بين صراع أنجولا وصراع الجزائر ، أن الجزائر نجحت فى لفت أنظار العالم عند وقت مبكر إلى حقيقة النضال التحررى الذى يخوضه شعبها ، واستطاعت حركتها الوطنية الباسلة أن تنفذ عبر الستار الإرهابى الذى فرضه الاستعمار الفرنسى ، وأن تخاطب الرأى العام العالمى من فوق رؤوس المستعمرين وأن تفضح أكاذيبهم ، وتكشف فظائعهم ، وتهافت حججهم حتى فازت بالنصر بفضل بطولة شعبها الخارقة وتضامن الشعوب افروأسيوية ، وشعوب العالم . بينما مشكلة انجولا مازالت تحتل زوايا الاخبار ، وتختفى فى الصفحات الخلفية من الجرائد . «فستار الصمت» الذى ضربه الاستعمار البرتغالى مازال يعزل أنباء النضال البطولى الذى يدور على الأرض المخضبة بالدماء . ففى كل خريف تنتشر سلطة الشعب الانجولى فوق رقعة واسعة من أرضه ويتوارى المستعمرون فى مدنهم المحصنة ، ووراء قلاعهم فى لواندا ؛ وعلى السواحل متخذين موقف الدفاع بينما يرفرف علم الثورة على المناطق المحررة ، ولا يكاد ينتهى موسم الامطار حتى يجهز الاستعمار لحملات الابادة ، ويحشد كتائبه وجيشه المزود بأحدث أسلحة خلف الاطلنطى ، ككلاب مدربه نحو المناطق الثائرة وأن سجل الفظائع والتدمير الذى تشهده تلك البلاد غب كل خريف ، وخلال حركات المد والجزر المتوالية لما يشيخ له القلب . ولا عجب فكلما أزداد الاستعمار تخلفاً وهزالا ، كلما أزداد بطشا وإشتهاء للدم .

واليوم يتحتم على الوطنيين الافريقيين — أكثر من أى وقت مضى — أن يعرفوا الوجه الحقيقى لقارتهم ، وأن يدحضوا القول الزائف بأنهم يستحقون قدرهم وأنهم بلا تاريخ . وبلا حضارة ، وأنهم غير مؤهلين للحكم ولا للسيادة ، مما يفرض ويبرر وصاية الرجل الابيض وحضارته ويجعل من حملاته — حتى العسكرية منها — نوعاً من الرسالة الانسانية (أو الرسالة التاريخية ، حسب التعبير السالازارى) لافريقيا المظلمة .

إن سير الاحداث العالمية اليوم قد أتى بكثير من الشواهد على كون شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، وإلى جوارها القوى المناضلة من أجل السلم والحرية ، قد صارت لها أمكانيات حقيقية — إمكانيات لاتقهر — لحل أهم قضايا عصرنا على النحو الذى تريد . وإنها لمتعاظمة هذه القوى أبدا ، أنها المتعاظمة يوماً بعد يوم فيما يفقد الاستعمار امكانياته وصلاحيته السياسية والاقتصادية جميعاً ، وما عادت تنقذه الاساليب الفاشية ، ولا الاقنعة ولا سياسة تبنى الشعارات وتزييفها ، ولا حتى أسلحة حلف الاطلنطى بكاملها (هذا الحلف الذى تنص مقدمته على أن أعضاء هذا الحلف يؤكدون بجدد ثقتهم لأهداف ومبادىء وثيقة حقوق الإنسان والامم المتحدة ، ورغبتهم فى العيش فى سلام جنباً إلى جنب مع الشعوب والحكومات ، وعزمهم على حماية حريه وتراث وحضارة شعوبهم التى بنيت على مبادىء الديمقراطية ، وحرية الفرد ، وسيادة القانون . بينما تسمح هذه الدول الاعضاء وتحرص بنفس الرغبة والحماس على تأييد العمليات العسكرية وحملات القمع التى تقوم بها البرتغال وغير البرتغال ضد شعوب أفريقية وضد شعوب آسيا أيضاً وفى أماكن أخرى فى العالم وتنفق عليها وتمول وتزود بأسلحة وعتاد وخبرة فيلق حلف الاطلنطى .. هذا الحلف الذى قام بالضرورة والنتيجة ، ورغم نصوصه وشعاراته الزائفة لحماية وتعضيد المصالح الاستعمارية والاحتكارية الغربية).

وإن من المضحك أن نسمع أحدهم يصرخ مؤخراً بأن أسلحة حلف الأطلنطى بالإضافة إلى إمكانيات الغرب العسكرية هى قوه إلى جانب السلم والحرية فى العالم . يقول ذلك فى غفلة تامة عن حقيقة ودرجة الوعى العالمى الذى يكشفه ويعريه حتى العظام ، والذى بات لا يصدق تصريحاتهم وهو يرى ويسمع يوميا عن دور أسلحة حلف الأطلنطى فى أفريقيا وآسيا إن الرأى العالمى الذى هو إلى جانب قضايا السلم والتحرر اليوم لمن أبرز مميزات عصرنا ، وإنها فى مجموعها تؤلف دلائل اليقظة والعدالة .

وليس يكفى أن نناضل لتقريب يوم النصر ، بل يتحتم علينا أن نعمل لكى يتحقق النصر بالحد الأدنى من الآلام والمعاناة الإنسانية ، وإن سلاح الوعى إنما يكمل سلاح المدفع والبندقية فى أيدى الوطنيين ، وإن تحطيم ستار الصمت الإستعمارى لا يقل أهمية عن تحطيم الحصار العسكرى والاقتصادى .

وبعـــد .

فليس هدف هذا الكتاب اقناع القارىء بعدالة قضية شعب أنجولا وشعوب افريقيا البرتغالية ـ فليس هناك من يمارى فى حق الشعوب الأفريقية ـ بل كل الشعوب ـ فى الحرية والاستقلال وفى أن يكون مصيرها بأيدى أبنائها وحدهم ولكن الهدف أن يعلم الوطنيون حقيقة الوضع فى أقطار شقيقة حيث تبذل الشعوب دماءها كل يوم وتواجه محنة الصراع الدموى صامدة .. أنه مساهمة متواضعة لكشف مؤامرة الصمت الإستعمارية .

الفصل الأول

سالازار فى البرتغال وفيما وراء البحار

إن التاريخ مليء بالأمثلة الدالة على الحيل التى تتبعها الدول الاستعمارية للابقاء على امبراطوريتها . غير أن البرتغال انفردت دون سائر الدول الاستعمارية جميعا بالاستعانة بذكائها القـــانونى للتحايل على الألفاظ والمغالطة الماكرة إذ تسمى ما كان يطلق عليه قبلا مستعمرات، بالمقاطعات وحدث هذا التغيير اللفظى فى سنة ١٩٥١ (١) حين أدمج قانون المستعمرات الذى كان ساريا منذ سنة ١٩٣٠ فى الدستور السياسى للبرتغال ومن تلك السنة اتخذت الامبراطورية البرتغالية الاستعمارية شكلا جديدا وفقدت صفتها الخاصة .

لقد كانت البرتغال فى الواقع تنظر نظرة بعيدة . ذلك لأن طلبها الانضمام الى الأمم المتحدة كان قد رفض ، ومع ذلك واصلت السعى على أمل أن تقبل يوما ما فى تلك الهيئة (٢) . لقد كانت هناك عقبات كأداء الطريق حينئذ ، لأن ميثاق الأمم المتحدة يرفض سياسة الاستعمار رفضا باتا ويدون بروح الاجلال حق الشعوب الرعايا فى الاستقلال (٣) . لذلك كان على البرتغال قبل أن تقبل عضوية الأمم المتحدة أن تثبت عن طريق هذا التغيير القانونى أنها لم تعد لها مستعمرات تسيطر عليها ، بل هناك أجزاء من دولة حرة كبيرة . وكل هذه الأجزاء متساوية من كل الوجوه

---

(١) قانون رقم ٢٠٤٨ بتاريخ ١١ يونيو سنة ١٩٥١ .

(٢) قبلت البرتغال فى عضوية الأمم المتحدة سنة ١٩٥٥ .

(٣) انظر الملحق (مادة ٧٣ من ميثاق الامم المتحدة) .

تتمتع بالحريات الأساسية وهى ديمقراطية فى تكوينها وأنها فى الواقع ليس هنالك مايفرق بينها وبين دولة كالويالات المتحدة الأمريكية أو البرازيل التى تضم فى مساحة جغرافية كبيرة سكانا يتكونون من مجموعات متنوعة الجنس والدين واللغة وما إليها .

لهذا أستغنى عن كلمة « مستعمرة » الكريهة وحلت محلها كلمة « مقاطعة » فيما أصبح يعرف « بالبرتغال فيما وراء البحار » .

مقاطعات البرتغال :

وقد وقعت أنجولا فريسة هذا التغيير ، هى وغينيا البرتغالية وجزائر الرأس الأخضر وسان تومى وبرنسيب وموزنبيق فى افريقيا ، وتيمور ومكاو فى المحيط الباسيفيكى . وعلى هذا التغيير بنت البرتغال حجتها بأنها خلقت لنفسها مركزا خاصا فى بناء الامبراطورية إذ كانت قد ابتكرت نظاما فريدا به ضمت به مستعمراتها الى البلد الأم .

«المقاطعة» ليست تسمية جديدة :

إن قليلا من البحث التاريخى قد يكشف لنا الحقيقة . لقد وردت كلمات : « مستعمرات » و أقسام و « مقاطعات » فى الماضى فى عدة قرارات وتشريعات مستعملة استعمالا غير دقيق نوعا ما . فمثلا فى سنة ١٩٣٣ [١] الذى يبسط ما يسمى « الاصلاح الادارى فيما وراء البحار » يجد القارىء تحت عنوان « الاقسام الادارية » للامبراطورية الاستعمارية المادة الآتية :

المادة الثانية . مراعاة لأغراض ادارية تقسم المستعمرات البرتغالية إلى مصالح وبلاد ، وتقسم البلاد الى أجزاء ادارية ثلاثة «١» مراكز ٢٠)

---

(١) قانون رقم ٢٢ : ٢٢٩ بتاريخ ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٣٣ .

مقاطعات (٣) مراكز ومقاطعات .

مادة ٣ — المستعمرات المقسمة إلى مقاطعات ويحكمها حاكم عام .

وحتى قبل ذلك نرى فى القوانين البرتغالية اضطراب التفكير واستعمال كلمات «دومنيون» و «ممتلكات» و «مقاطعات» و «مستعمرات» مرادفات لبعضها البعض فيتبادل استخدامها لتعنى أجزاء من الإمبراطورية الإستعمارية وكان التغيير الذى أدخل فى سنة ٩٥١، محاولة ، ولاشك ، لازالة الغموض ولتقويم السجلات بقصد اللف حول ميثاق الأمم المتحدة ولسد حاجات البرتغال الداخلية الخاصة التى أملتها نظرة سالازار المشوهة ونظرة واضعى دستوره . وعن طريق هذه التغييرات زعمت البرتغال أن رغبه الشعوب المستعمره فى الإنضمام انضماما كاملا إلى البلد الأم قد تحققت .

الحريات الاساسية فى البرتغال :

والبرتغاليون أنفسهم فى موطنهم الأصلى (البرتغال) لايتمتعون بالحريات الأساسية . فليست هناك حرية التعبير أو الفكر ولا حرية الاتصال بالغير ولا حرية الصحافة . ويكون من الغباء أن نتوقع أن سكان المستعمرات سواء أكانوا من الأصليين أم المستوعبين يتمتعون بحريات فكرية أفضل . غير أن دستور البرتغال السياسى به مادة تمنح مواطنى البرتغال حق حرية التعبير والفكر فى أية صورة كانت وحرية الاختلاط والإجتماع . ولكن هذه المادة نفسها (١) تحاصر هذه الحريات بل فى الواقع تلغيها إذ تقول .

ستصدر قوانين خاصة لتنظيم حرية التعبير عن الأفكار وحرية الإجتماع والإتصال . وفيما يتعلق بحرية التعبير فإنه يجب منع تضليل الرأى

---

(١) مادة ٨ من القانون السياسى سنة ١٩٣٣

العام أما بوسائل الوقاية أو القمع

ولذلك فحرية الفرد محددة تحديداً ثقيلا ولا غرابة فى هذا إذا تذكرنا أن حكومة سالازار دكتاتورية معروفة بقوانينها الغاشمة ووسائل قمعها القاسية — دكتاتورية اضطر فى ظلها حتى المرشح فى انتخابات الرياسة أن يدفع ثمن «جريمة التقدم للانتخابات» ضد مرشح سالازار بالإلتجاء إلى أمريكا الجنوبية .

الصحافة فى البرتغال :

وكذلك الصحافة فى البرتغال وفى (المقاطعات) فيما وراء البحار تخضع للتنظيم القاسى . إذ ينص الدستور السياسى على رقابة (١) الصحف قبل صدورها وعلاوة على ذلك ، فيما يتعلق بالصحف التى تصدر فى المستعمرات ، يدفع المحرر أو الناشر أو حتى المراسل ضمانا نقدياً يحول بينه وبين سوء التصرف . وإذا سها الرقيب الحكومى عن ملاحظة تعقيب مضاد فالصحيفة لا تعفى من المسئولية الجنائية المترتبة على التعقيب . وفى مثل هذه الظروف التى تحد من حرية الفرد أو الجماعة فى التعبير عن الرأى تكاد الا تكون هناك حرية رأى فى المسائل الأساسية مثل حقوق المواطن أو حقوق شعب المستعمرات .

وفيما يلى فقرة مقتبسة من خطاب كتبه فى سنة ١٩٥٤ أنطونيو سرجيو ، وزير برتغالى سابق ، وأحد مثقفى البرتغال الاحرار ، تبين بوضوح كيف يشعر البرتغاليون أنفسهم حيال الموقف الذى هم فيه . ولقد كان هذا الخطاب موجها إلى وزير (المقاطعات) فيما وراء البحار وقتئذ ، يقول سرجيو :

---

(١) مادة ٢٢ من القانون السياسى سنة ١٩٣٣

إنى أقدم الإقتراح البناء التالى وهو القيام بحملة صلات مدنية — حملة الوحدة الوطنية الحقيقية ، وذلك بالغاء نظام الحرب الباردة ومنح البرتغاليين فيما وراء البحار وفى البرتغال نفسها الحريات المدنية الأساسية ألا وهى حرية الأعراب عن الفكر وحرية الاجتماع بكيفية منظمة وإنشاء الجمعيات وذلك بوضع حد للرقابة ومصادرة الكتب التى تشمل مبادىء غير مشروعة ، وبإطلاق سراح السجناء السياسيين والإجتماعيين.

وإذا جردنا أنفسنا من حرفية قانون المستعمرات وروحه وأزلنا التفرقة العنصرية فى أفريقيا البرتغالية ..

كيف يقاوم النشاط الهدام :

ويجدر بالإنسان أن يتساءل كيف يمكن لسالازار وحكومته فى إمبراطورية كبيرة كهذه أن يحتفظوا بالسلطة التامة لضمان عدم توجيه النقد إلى الحكومة ، أو سياستها ؟ أما الإجابة عن هذا السؤال فنجدها فى قوانين وأساليب وتنسيق النظام القائم . فالقوانين الخاصة بما يسمى « النشاط الهدام » من السعة بحيث تشمل فى نطاقها فعلا كل مظهر لا يتفق مع طريقة الحكومة فى تفكيرها الخاص

ان هـــذا فى الواقع احتياط واسع الباب يخول الحكومة سلطة اضافية (؟!) ضد أى شخص لا تتفق قسمات وجهه أو هيئته أو صوته مع النسب التى حددها نظام حكم سالازار . وبموجب نص فى قانون معدل صدر سنة ١٩٥٦ (١) أصبح للحكومة السلطة أن تنفى المشبتة فى أمرهم لمدة غير محددة حين لا تجد الدليل على الادانة أو أن تزيد مدة الاعتقال « لمدد أخرى متعاقبة كل منها ثلاث سنين » .

---

(١) قانون رقم ٥٥١ ر ٤٠ لسنة ١٩٥٦ .

على شعب المستعمرات ان يختار

هذا قليل من كثير من أمثلة القوانين التي تطبقها حكومة سالازار بقصد قمع حرية شعوب المستعمرات حتى لا يعربوا عن ارادتهم . وإذا جمعنا هذه الأمثلة معا اتضح منها بكل جلاء أن شعب المستعمرات يستحيل عليه حتى مجرد التفكير في الاستقلال . وفي الواقع أن كل نشاط حقيقي يهدف إلى التحرير يمكن أن تطبق عليه هذه القوانين القامعة فتخنقه في مهده . ولذلك فليس أمام شعوب الممتلكات المستعمرة إلا أحد سبيلين فاما الثورة ضد النظام وتحمل أوخم عواقب الاعتقال بدون محاكمة والتعذيب على أيدي البوليس المنظم لحماية الدولة ، أو كسب المديح من وراء تملق النظام القائم ومجاراته .

تغيرات سريعة في البرتغال :

أن الدستور البرتغالي السياسي للبرتغال يتعرض لتغيرات بسرعة عجيبة حتى يلائم المطالب الخاصة في الوقت الحاضر . فلقد أذيع أول دستور للنظام القائم يوم ١١ بريل ١٩٣٣ تحت عنوان « الدستور السياسي لجمهورية البرتغال » ومنذ ذلك التاريخ عدل الدستور مالا يقل عن سبع مرات خلال ثمانية عشر عاما وبينما اعادة النظر في الدستور تعتبر من حق مجلس الأمة ،

فأي عبارة تذكر في مقهى أو اجتماع في بيت خاص أو خطاب وارد بالبريد أو عظة تلقى في كنيسة تندرج كلها تحت باب النشاط الهدام حتى ولو كانت جميعها تتجه إلى طلب أشياء صغيرة مثل مراعاة الرقة في معاملة الأهلين وما إلى ذلك . وفي الواقع هناك قانون شامل ينظم مايسمى « بالاجراءات الواقية والقامعة » يتعلق ببعض أنواع النشاط التي تعتبر موجهة ضد أمن الدولة (١) .

---

(١) قانون رقم ٣٧/٤٧٧ بتاريخ ١٣ يونية سنة ١٩٤٩

(مادة ١٠ — « ان الاجتماعات أو الجمعيات التي يلاحظ فيها مظاهرات مثيرة وضارة موجهة ضد السلطات القائمة أو يحتمل أن تخل بأى طريقة من الطرق بالنظام العام أو بأمن المواطنين ستفض إذا كانت مخالفة للقانون » .

مادة ٢٤ — أن المطابع التي تقوم بطبع المنشورات والمطبوعات والنبذ وغيرها من المواد الهدامة أو التي يحتمل أن تخل بالنظام العام تغلق وتصادر الدولة معداتها ومنقولاتها »)

هيئة بوليس خاصة :

ولكن تنفذ النصوص الصارمة للقوانين الموضوعة ضد الأعمال الهدامة كونت الحكومة البرتغالية هيئة بوليس خاصة تعمل فروعها السيئة السمعة والمعروفة « بالبوليس الدولى لحماية الدولة » وتصل إلى حد الشطط فى عملها فى « المقاطعات فيما وراء البحار » وسلطتها التى تستمدها من القوانين الصارمة الخاصة بالنشاط الهدام تزداد قوة عن طريق الاجراءات التالية :

« يجوز اعتقال أى شخص لأسباب تتعلق بالأمن لمدة تتراوح بين سنة وثلاث سنين فى مكان مناسب » (٢)

فان تعديل الدستور يدخل فى حدود سلطة مجلس الوزراء بدون تشاور سابق مع ممثلى الشعب الذى تطبق عليه هذه التعديلات . وكانت هذه الطريقة السهلة التى أدخلت بها التعديلات المتعلقة بالمستعمرات إلى الدستور موضع نقد أحد الرجال العموميين البارزين فى البرتغال ، لا يتفق بالطبع فى تفكيره مع سالازار . لقد قال المهندس كونهاليل الذى دافع عن منح جوا الاستقلال الذاتى التام ، ما يأتى :

---

(٢) قانون رقم ٤٧ ؛ ٣٧ السابق ذكره .

ان سالازار تقدم بحجة يظنها دامغة لايمكن الاعتراض عليها فيقول ان الدستور ينص على وحدات البرتغال والممتلكات فيما وراء البحار ويضعها جميعاً على قدم المساواة القانونية ويعتبرها غير قابلة للانفصال ان طوعا وان كرها ، أو للتبادل أو للمساومــــة . وهكذا يثير (الرئيس) سالازار خطرا دستوريا يجعل منه قانونا أعلى ، ليتجنب المفاوضات التى ترمى إلى انقاص كياننا الجغرافى . غير أن نهرو يمكن أن يتحدى هذا القول أنه ليس هناك دساتير غير مدركة بالحس وأن الدساتير جميعها تحوى نصوصا يحتمل أن تسمح بادخال تعديلات عليها ..

فإذا اعتبرنا ، فى ضوء ماتقدم ، أن الدستور البرتغالى طبق على جوا ابتداء من تاريخ حديث لايزيد عن سنة ١٩٥١ على أنه من وجهة أساسية سياسية اقتضتها الظروف ، اتضح لنا أكثر مغزى نقد كونهاليل لسالازار .

وطبقا للانموذج الادارى العام المتبع تحت الدستور البرتغالى يكون تعيين الحكام العموميين والحكام من حق مجلس الوزراء بلشبونه ، ولم يحدث فى كل تاريخ المستعمرات ان عين احد الاهالى حاكم عام أو شغل هذا المركز لمدة من الزمن ، وحسب النظام الإدارى المتبع فى المستعمرات ويشغل المراكز الكبرى ذات المسئولية الإدارية بما فى ذلك وظائف رئيس مكتب الحاكم الإدارى العام ، ومدير الإدارة ، وقائد الجيش ورئيس القوات البحرية وقمندان الشرطة وغيرهم ، يشغلها أوروبيين من البرتغال نفسها . وبهذه الطريقـة « تصون » البرتغال مصالح مقاطعاتها . فوزير المستعمرات ، علاوة على السلطة المخولة بتعيين الموظفين بالخدمة فيما وراء البحار أو إدارات المستعمرات ، له أيضاً سلطة تأديبية تامة على هذه الخدمات والموظفين بها الذين يملك بيده مصيرهم أما للتزكية أو للفصل إذا لم يتصرفوا وفق أنموذج مصادق عليه .

ويمكن اتخاذ الوضع السابق للإدارة والذى كان مطبقا فى جوا كأنموذج مثالى للوضع الإدارى فى المستعمرات البرتغالية الأخرى ، والقانون التالى يعتبر نموذجى أيضاً .

قانون جوا السياسى لسنة ١٩٥٠

فى ظل هذا القانون تأيدت كل الحقوق الخاصة لمجلس الأمة فى البرتغال ومجلس الوزراء ، ووزير المستعمرات (والتى تسمى ممتلكات) فيما وراء البحار فى لشبونة فيستمر حاكم جوا العام فى طلب مشورة مجلس حكومى يتكون من أعضاء يرشحهم الحاكم العام نفسه .

وقد تكونت هيئة تدعو إلى السخرية بالمجلس التشريعى مهمتها الأساسية الدفاع عن سلامة الدولة البرتغالية » ، وينحصر عمل هذا المجلس فى تقديم مشروعات قوانين لا تتطلب زيادة فى المصروفات ولا نقصانا فى الدخل ، ويختار أعضاء هذا المجلس من الحظيرة الضيقة لمجلس الأمة ، وهو الحزب الوحيد المصرح له بالعمل

وأما فى المحيط المالى فان الذى يقر الميزانية هو الحاكم العام المعين وليس المجلس التشريعى المنتخب . وبالرغم من ذلك فهناك اجراء ينطوى على حكمة سياسية بالغة وهو أن المجلس التشريعى يسمح له أن يبدى رأيه فى بعض المقترحات بالميزانية ويمكنه حتى أن يطلب إلى الحاكم العام أن يضع هذا الرأى موضع الاعتبار قبل أن يوافق مجلس الحكومة على الميزانية . ومع ذلك فبالرغم من هذه العملية تستمر سلطة وزير الممتلكات فيما وراء البحار على النسخ والإلغاء ، فهو الحاكم الأعلى فى كل ماهو غير دستورى أو غير قانونى ، كما أنه المراجع الأول والأخير فيما يعود بالخير على المستعمرة ، فيستطيع أن يفرض نظما تتحكم فى الكيان المالى للمستعمرة وفى منطقة تسودها الديمقراطية المستنيرة ، وفى وقت

استجابت فيه معظم الدول الاستعمارية لنداء الحكمة وبعد النظر فمنحت الاستقلال لمستعمراتها تشذ حكومة سالازار وتضرب المثل الفريد على الحكم الدكتاتورى الكلى .

الحرية للممتلكات التابعة :

إذا رجعنا إلى سنة ١٩٤١ وجدنا أن ميثاق الأمم المتحدة يعرب عن الاهتمام الدولى بخير « جميع الشعوب فى كل البلاد » . وذكر الإعلان المشترك الذى أصدرته المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية أن الدولتين « تحترمان حق الشعوب فى اختيار نوع الحكم الذى يريدون أن يعيشوا فى ظله » وأنهما ترغبان » فى أن تريا حقوق السيادة والحكم الذاتى تعود إلى أولئك الذين سلبت منهم عنوة واقتداراً » . ومع أن مؤتمر « دمبارتن أوكس » الذى انعقد فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ ووضع مسودة خطة الهيئة الدولية المستقبلة لم يذكر شيئاً عن معاملة شعوب المستعمرات إلا أن مؤتمر يالتا هو الذى توصل إلى الاتفاق على أن يتولى بحث جهاز الوصاية والمبادىء التى تقوم عليها .

وعلى ذلك فأول بيان صدر للاسترشاد به عند النظر فى عضوية الأمم المتحدة ورد فى المذكرة الخاصة بتنظيم مؤتمر الأمم المتحدة الذى عقد فى سان فرانسيسكو بشأن الهيئة الدولية . وهذا البيان شمل تكوين لجنة تعد مسودة للمبادىء والأجهزة التى يقوم عليها نظام الوصاية الدولية والتى توصى بتطبيقها على البلاد التابعة التى تحت الوصاية بمقتضى اتفاقيات مقبلة، غير أن التعبير « بلاد تابعة » قد استعيض عنه فيما بعد بالتعبير « بلاد لا تحكم نفسها » .

وكانت مشكلة «البلاد التى لا تحكم نفسها» موضوع نقاش حام دورة بعد دوره فى الجمعية العامة للأمم المتحدة . وأبان النقاش بجلاء ضرورة تحديد

المقصود من كل من التعبيرين : بلاد تتمتع « بالحكم الذاتى » وبلاد « لا تتمتع بالحكم الذاتى » . وفى نوفمبر سنة ١٩٥١ أعدت اللجنة الخاصة قائمة بالعوامل التى تساعد على ذلك والتى قالت عنها أنه لا يمكن اعتبارها جامعة مانعة . ونوه تقرير اللجنة بأهمية ما يلى :

« إن إرادة شعب البلاد التى يهمها الأمر ، تلك الإرادة التى يعرب عنها بطريقة ملائمة حرة ، تعتبر فى جميع الحالات العامل الأكبر فى تقرير ما إذا كانت العلاقة بين السلطة الإدارية والبلاد تتمتع بالحكم الذاتى قد تطورت فوصلت إلى المرحلة التى يمكن أن يقال عنها فيها أنها بلغت الحد الكامل للحكم الذاتى .

وفى دورة سنة ١٩٥١ والدورات التالية استمر البحث فى قائمة العوامل التى يجب أن يكون لها اعتبارها عند تقريرما إذا كان أحد البلاد التابعة قد بلغ الحد الكامل للحكم الذاتى أم لم يبلغه بعد . وفى سنة ١٩٥٢ اتخذت الجمعية العمومية قراراً دعت فيه لجنة الاستعلامات الخاصة إلى فحص العوامل التى يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عند تقريرما إذا كان أى بلد قد بلغ أهله أولم يبلغ أهله الحد الكامل للحكم الذاتى ، وأخيراً وافقت الجمعية العامة فى سنة ١٩٥٣ على قائمة من العوامل التى أعدتها اللجنة واصطلحت عليها بناء على معلومات من البلاد التى لا تتمتع بالحكم الذاتى .

قرار العوامل :

وينص قرار العوامل ، كما اصطلح على تسميته ، على ما يأتى :

(ا) العوامل الداله على بلوغ الاستقلال .

(ب) العوامل الدالة على نظم أخرى منفصلة من الحكم الذاتى .

(ج) العوامل الدالة على العلاقة القائمة على الحرية والمساواة لبلد تابع مع البلد الأم أو مع بلد آخر على أنه جزء لا يتجزأ من ذلك البلد الآخر أوفى أية صورة أخرى . وبما أن جوا ، طبقاً لقول حكومة سالازار ، جزء لا يتجزأ من البرتغال فإنه يكون من المفيد أن نذكر بالتفصيل ماجاء فى الجزء الثالث من قرار العوامل، من اعتبارات .

(أ) إعتبارات عامة .

١ — رأى السكان — رأى سكان البلد يبدونه فى حرية بعمليات ديمقراطية واضحة عن الحالةالتى يرغبون فيها أوالتغيير فى تلك الحالة .

٢— حرية الاختيار — حرية سكان البلد الذى لا يتمتع بالحكم الذاتى والذى ارتبط بالبلد الأم باعتباره جزءا لا يتجزأ منه أو بأية صورة أخرى — حريتهم فى تعديل هذه الحالة عن طريق الاعراب عن إرادتهم بالوسائل الديمقراطية .

٣ — إعتبارات جغرافية — أن مدى علاقات البلد التابع بعاصمة الحكومة المركزية قد يتأثر بالظروف التى تطرأ بسبب الموقع الجغرافى كأن يفصل بينهما بحر أو أرض أو أى فاصل طبيعى . وحق الدولة الأم أو البلد التابع فى تغيير الحالةالسياسية لذلك البلد فى ضوء ما إذا كان البلد عرضة أو ليس عرضة لأى مطلب أو دعوى من جانب دولة أخرى .

٤ — إعتبارات عنصرية وثقافية— مدى اختلاف السكان فى الجنس واللغة والدين أو مالهم من تراث ثقافى ومصالح

أو آمال خاصة تميزهم عن شعوب البلد الذى لهم به صلات حرة .

٥ — التقدم السياسى — تقدم السكان تقدماً سياسياً بدرجة كافية تمكنهم من تقرير مصير البلد التابع بدراية كافية .

٦ — إعتبارات دستورية — وجود علاقة بمقتضى معاهدة أو اتفاق ثنائى يؤثر على حالة البلد مع مراعاة . أولا — ما إذا كانت الضمانات الدستورية تشمل البلد المرتبط بتلك العلاقة وثانيا — ما إذا كانت هناك سلطات فى مسائل خاصة محتفظ بها دستورياً لذلك البلد أو للسلطة المركزية وثالثا — ما إذا كان هناك نص على اشتراك البلد على أساس المساواة فى إحداث أى تغييرات فى النظم الدستورية للدولة .

(ب) إعتبارات خاصة لحالة البلد التابع .

١ — التمثيل القضائى — التمثيل بدون تفرقة فى الهيئات القضائية المركزية على نفس الأساس المراعى مع السكان الآخرين والأقاليم الأخرى .

٢ — اشتراك السكان — اشتراك سكان البلد التابع إشتراكا فعالا فى الحكم مع مراعاة . أولا هل هناك نظام إنتخابى تمثيلى مناسب لائق . وثانيا — هل يدار هذا النظام الانتخابى بدون تدخل مباشراً أو غير مباشر من حكومة أجنبية .

٣ — الحقوق الوطنية — التمتع بالحقوق الوطنية تماماً مثل باقى السكان .

٤ — موظفو الحكومة — موظفو البلد التابع لهم الحق فى شغل كل الوظائف العامة للسلطة العامة المركزية سواء بالتعيين أو بالاختبار كغيرهم من سكان الأجزاء الأخرى من البلاد .

(ج) إعتبارات خاصة بالأحوال الدستورية الداخلية .

١ — حق الانتخاب — تصويت عام متكافىء وانتخابات حرة دورية تتميز بعدم وقوع الناخب تحت تأثير غير لائق أو أكراه أو عدم فرض قيود تعجيزية على بعض الأحزاب السياسية .

٢ — الحقوق والأحوال المحلية — فى نظام الحكم الموحد يتمتع سكان البلد التابع والهيئات المحلية بما يتمتع به السكان والهيئات المحلية فى الأجزاء الأخرى منه ، وفى نظام الحكم الفدرالى يتمتع به جميع السكان والهيئات المحلية فى كل أجزاء الدولة بنفس المقدار من الحكم الذاتى .

٣ — الموظفون المحليون — يكون تعيين أو اختبار الموظفون فى البلد التابع على نفس الأساس المتبع فى الأجزاء الأخرى .

٤ — التشريع الداخلى — يكون الحكم الذاتى المحلى كما هو فى الأجزاء الأخرى من حيث نطاقه والظروف التى يطبق تحتها .

٥ — الاختصاصات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية —

يكون هناك قدر من الحكم الذاتى فيما يتعلق بالشئون الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، يتمثل فى درجة التحرر من الضغط الاقتصادى تقوم به مثلا جماعة من أقلية أجنبية اكتسبت بفضل مساعدة سلطة أجنبية مركزاً إقتصاديا ممتازاً مجحفاً بالمصلحة الاقتصادية العامة لشعب البلد التابع ، كما يتمثل أيضاً فى درجة الحرية وعدم التحيز ضد الشعب الأصلى فى التشريع الاجتماعى والتنمية الاجتماعية .

انجولا والعوامل المذكورة :

وفى ضوء هذه التفاصيل وتحليل التكوين الادارى الذى سبقها والظروف الآخرى السائدة مايغنى عن كل تعليق ، فان الأمر لا يقتصر على انعدام الطرق الديمقراطية والحريات الأساسية فى المستعمرة بل فى الشئون المتعلقة بالتمثيل فى الهيئات التشريعية المركزية ، فاشتراك السكان فى النظم الادارية وكذلك الحقوق والأحوال المحلية — فى كل هذه الأمور تفرقه صريحة ضـــد الأهالى فى المستعمرات . لذلك نرى أن الطابع التبعى والاستعمارى للمستعمرة وعلاقتها بالبرتغال مستمرين من جميع الوجوه . ومع كل هذا لانسمع من البرتغال عند كل سؤال لها من سكرتير عام الأمم المتحدة الا جوابا يثير الضحك والازدراء ، إذ تقول بكل بساطة فى الظاهر أنها لاتدير ممتلكات تقع تحت النوع الذى تنطبق عليه المادة الثالثة والسبعون من ميثاق الأمم المتحدة . لقد أصر مندوب البرتغال لدى الامم المتحدة على أن البرتغال ليس لديها مستعمرات أو ممتلكات لاتحكم نفسها وأن « الحالة الدستورية للمقاطعات فيما وراء البحار تعدل تماماً حالة المقاطعات الأوربية . وليس هناك أى من الممتلكات مايزيد أو ينقص فى الحالة الدستورية عن غيره » وأضاف المندوب فى اجابته عن مكاتبة السكرتير

العام عند مناقشة مشكلة جوا (التى استقلت بالعنف فى ١٩٦١/١٢/١٨) أن حكومته « راعت فقط نصوص الدستور البرتغالى » .

ومضى المندوب البرتغالى فى كلامه ليشير إلى « القيود المتصلة بالأمن والدستور » المذكورة فى المادة الثالثة والسبعين فقال :

ان هذا يعنى أن المادة الثالثة والسبعين ، بغض النظر عن الموقف القائم وعن مكان تلك الممتلكات ، حتى ولو كانت لاتحكم نفسها — مع أن هذا لا ينطبق على حالتنا — لاتنطبق عليها حين تمنع النصوص الدستورية هذا التطبيق . ذلك أن رأينا أن المادة الثالثة والسبعين قد رأت أن الدساتير الوطنية قد تشمل أو تثير القيود المشار اليها فى المادة . ويترتب على هذا أن الانسان لا يرى مفرا من الموافقة على أن تلك الدول بالرغم من وجود سكان أو ممتلكات لم تستكمل نموها بعد لديها من الأسباب مايجعلها ألا تقدم أية معلومات تقع تحت نطاق المادة الثالثة والسبعين . هذا هو موقفنا بالضبط ...

مسخ الحق :

تؤكد هذه العبارات بكل صفاقة مسخ الحقيقة مسخا تاما لجأت اليه حكومة سالازار سعيا وراء تأييد موقفها الكاذب الذى لا يمكن الدفاع عنه فى المستعمرات فقبول المملكة المتحدة وفرنسا وهولندة تقديم معلومات عن مستعمرات طبقا للمادة الثالثة والسبعين من الميثاق ، مع أن حالتها لاتختلف عن حالة البرتغال ، يبين بصورة واضحة كالشمس صفاقة البرتغال . ويجب أن نذكر أن مستعمرات البرتغال كغيرها من المستعمرات والممتلكات الأخرى جاءت نتيجة للغزو الاستعمارى فليس هناك اذن ما يبرر التفرقة بين أمانى وحقوق شعب مستعمر وآخـــر . فكل البشرية واحدة تستوى فى أمانيها لنيل الحرية والاستقلال . فاذا كانت المستعمرات السابقة للمملكة المتحدة أو للولايات المتحدة الامريكية قد أصبحت مستقلة فعلى أى أساس

يمكن القول بأن أنجولا وموزنبيق أو أى بلد تابع آخر لا يجب أن يأمل في الوصول إلى مصير غانا أو نيجيريا و يجب أن يبقى قانعا بأن يكون جزءا مما يسمى البلد الأم ؟ فانه بالحرية وحدها يمكن للإنسانية أن تتحد على السلم والرفاهية ، ذلك أن الحرية خاصية أساسية في الطبيعة البشرية وصفة تستوى فيها البشرية جمعاء .

الفصل الثانى

ستار الصمت فى افريقيا

تسمى مستعمرات البرتغال « منطقة الصمت فى أفريقيا » .. ولا عجب فالذى يجعل موزنبيق بلدا مجهولا هو صمت شعبها الأفريقى «هذا هو تعليق مؤرخ أمريكى معاصر هو البروفيسور ماوفين هاريس الذى قام بدراسة دقيقة لهذا الموضوع . ويضيف البروفيسور هاريس « معزولون بكل حرص عن أى أخبار من الخارج وتحت وطأة جهل مطبق وعرضه لأبشع أنواع العقوبات والقهر والنفى بأقل إشارة من السلطات الأوربية - يجد الأفريقيون أنفسهم فى المستعمرات البرتغالية - مضغوطون غير مسموح لهم بالتعبير عن أفكارهم أو رفع أصواتهم لاسماع الآخرين » - و « أن جميع رعايا المستعمرات الذين يثورون حتى بالفكر على السلطة البرتغالية هم مجرمون . هذا القول يمكن أن يكون نمطا بالنسبة لجميع مستعمرات البرتغال أنجولا . غينيا ، ساوتوس وجزر الرأس الأخضر Cspe verdé

ولكن هناك أخيراً أصوات غاضبة ترتفع اليوم ، أصوات عشرات المتغلبين على المصادرة ، وأصوتا آتية عبر عشرات السدود والعقبات ، واضحة وغاضبة ..

وهذا الغضب الذى يشوب هذه الأصوات هو غضب نبيل مبرر يعرف أحباء الحرية مبرراته ويقدرونه . أنها أصوات ترتفع باسم الجماهير المحاصرة كالطرائد فى الفخاخ ، جماهير تعرف إنها محاصرة فى فخاخ آلام لاتصور ..

ولقد لاحظ زائر أمريكى فى كتاب بعنوان (موت أفريقيا) «أنه» كل من يهتم بأفريقيا يتكشف له أن أفريقيا البرتغالية هى أسوء المناطق حكما فى العالم إنها أسوء بكثير مما وصفه الكتاب من آن لآخر، خلال السنوات الماضية.

غير أن أذناب الدكتور أنطونيو دى أوليفيرا سالازار ديكتاتور البرتغال الذى نجح فى القبض على السلطة بيد من حديد خلال الثلاثين سنة الماضية أذناب سالازار المرتزقة يواصلون التأكيد بوقاحة عجيبة أن مثل هذه الكتابات والوثائق ليست سوى اختلافات حاقدة مريرة لجماعة من سيء القصد أو الشيوعيين المشاغبين. وهؤلاء الأذناب يقولون فوق ذلك أن نظام سالازار هو أصلح النظم للافريقيين، وأن الأفريقيين سعداء، وأن البرتغاليين خير من يفهم، وأنهم - أى البرتغاليين - هم المبادرون من دون جميع المستعمرين الاوربيين بإدخال نظام الــترقى الذى يسمح بصهر الأفريقيين والبرتغاليين فى بوتقة الحضارة البرتغالية. وذلك برفع السود إلى قطاع المجتمع الأبيض عن طريق الامتيازات الممنوحة لهم، من قبل السلطات البرتغالية، ويضيف هؤلاء الأذناب أيضاً أن أى مناقشة لما يمكن أن يرمى إلى استقلال هذه المستعمرات أمر فى حكم الاستحالة، وأنه ليس هناك مايسمى بالمستعمرات حسب الدستور البرتغالى — المعدل سنة ١٩٣٥ — وأن هذه المناطق هى حدود اقليمية للبرتغال فــيما وراء البحار.

وطبيعى أن لا تصمد مثل هذه الخزعبلات لأى منطق، فهى عارية من الحقيقة ومفضوحة من أساسها حيال أبسط التقارير الواردة من وراء «ستار الصمت» المضروب حول المستعمرات.

الرق الجديد أو السخرة الاجبارية :

يقول البريفسور شارل أندرية جوليان فى مؤلفه « تاريخ أفريقيا ». تنمو التفرقة العنصرية فى أفريقيا البرتغالية متأثرة بمدارس التفكير فى جنوب إفريقيا يغذيها قانون تحريم الزواج المختلط.

والأفريقيون يوضعون — بتدبير — تحت وطأة ظروف أبسطها التخلف الفكرى، الناتج عن الأمية التى يقفز منسوبها إلى ٩٩ ٪ وحتى التبشيريات لاتقدم من التعليم أكثر من مبادىء أولية جداً وهى مع ذلك لاتستوعب سوى أعداد ضئيلة والقوانين والتشريعات وضعت جميعها لتدعيم سياسة البرتغال ومكانة الاوروبيين والعقوبات هى السوط دائما والنار فى كثير من الأحيان.

وبالرغم من أن العمل الإجبارى غير مسموح به إسميا، يجمع العمال بالقوة وبعقود صورية، وتتفاوت حظوظهم بين الرق وبين ماهو أسوء منه. وفى تقرير آخر يقدمه اسكندر كامبيل فى كتابه (فى قلب إفريقيا) كل بالغ إفريقى - ويؤخذ سن الخامسة عشر حداً لذلك - مجبر على إن يعمل لأى سيد أبيض فى إفريقيا البرتغالية متى طولب بذلك لمدة ستة أشهر على الأقل فى السنة، أو ان يقدم جعلا، مضافاً، معيناً من محصول أرضه إذا كان يملك شيئا من ذلك، وفى هذه الحالة تكون هذه الأرض عبارة عن شريط قاحل من الأرض البور يجاهد فوقها الفلاح الافريقى بأكثر الأدوات بدائية احتماء من العمل الإجبارى، غير ان الضرائب لاتترك له مكاناً للتنفس، فهو مطالب بتقديم جعل من أرضه كضريبة على هذه الإرض، وهذه الضريبة بمثابة أيجار - ذلك ان الملكية ممنوعة - ايا كان نوعها - ومحرمة على الافريقى. وإلى هذه الضريبة تدخل ضرائب اخرى كضريبة السيادة، وضريبة الكوخ، ومختلف الضرائب المصطنعة لانهاك

الافريقيين وكل من يفشل فى تقديم هذه الضرائب يساق إلى معسكرات السخرة للعمل فى الطرق طوال العام .

والايدى العاملة هى أحد مصادر العملة الاجنبية الهامة ، وهى من صادرات البرتغال الرئيسة لأفريقيا ، حيث تؤجر للعمل فى مناجم جنوب أفريقيا وروديسيا الشمالية .

ويقول جون جنتر أيضاً والذى لاحظ هذه الأحوال بصورة أدق وأقرب فى مؤلفه « داخل أفريقيا » يمتاز حكم سالازار فى أفريقيا وفى البرتغال بدكتاتورية مطلقة ، فالصحافة مراقبة والبوليس السرى متفشى والانتخابات — حتى اذا تمت لاتعنى شيئا . والممتلكات الأساسية هى الفقر الشديد وقلة التعليم . »

وأسوء ما فى أفريقيا البرتغالية نظام العمل الاجبارى ، ان العمل الاجبارى موجود والحكومة البرتغالية تعترف بوجوده أيضاً ، وتؤكد أنه « أمر مفيد لرعاياها أنه ليس رقا وحسب وانما هو شيء أسؤ من الرق نفسه وأشد شرا ، انه يحول الآدميين إلى منقولات وإلى مجرد متاع يخص السيد الأبيض .

ويجرى الأمر هكذا :

يعلن أحد الاقطاعيين المستوطنين السلطات عن حاجته إلى عدد من العمال الزراعيين أو للمناجم فيسارع ضابط المركز إلى توفير العدد اللازم . «فجامعو الأهالى » يخرجون للقرى ليجمعو العدد المطلوب طمعا فى عمولة متعارف عليها من الضباط ، والضابط نفسه يتلقى رشوة « مقننة » من الاقطاعى ، وتبلغ قيمة هذه الرشوة فى الأحوال العادية عشر أضعاف رواتب هؤلاء العمال لمدة ستة أشهر !! والدليل على سكوت الحكومة على هذا الأمر هو أنها — بالرغم من أنها تحتفظ لنفسها بحق تشغيل هؤلاء

العمال لمدة ستة اشهر بحد القانون — فهى عندما تغضب على احد الضباط تعاقبة بنفيه إلى احدى المناطق الحضرية التى تقل فيها فرص الرشوة ، والعكس صحيح ، فهى تسهل الذين ترضى عنهم جمع الرشوة بتعينهم فى المناطق الريفية او فى مناطق المناجم وحول مزارع الاقطاعين Colonatos .

إن أخطر عوامل انهيار المجتمعات الريفية الأفريقية تجارة الرقيق والسعى للحصول على الذهب وأسوأ مظاهر الاستعمار البرتغالى — وهو من أقدم حملات الغزو التى منيت بها سواحل أفريقيا — من أسوأ مظاهر هذا الاستعمار العمل الإجبارى وسياسة التعليم ، وإن هذا الكتيب يركز على هذين المظهرين ... اللا إنسانية باعتبارهما أبشع جريمة فى حق أفريقى مستعمرات البرتغال .

إن نظام العمل الإجبارى هو نظام يمثل انكفاءة للوراء ، ويعد أسوأ من الرق نفسه ، فالرق ، فى حقيقة الأمر أداة لأعداد الافريقى لتلقى العمل الإجبارى كمصير له ، عن طريق جعله كائنا داجنا يستسلم لهذا النظام تحت تأثير ما يسمى « بالحضارة المسيحية » وعن طريق « رسالة البرتغال الروحية لأفريقيا » . وغيرها من أساليب الأفك والتحايل .

يقول باسيل ديفدسون فى مقدمة كتيب لأحد المناضلين الافريقيين هو آبل إدجاسى (Abel Edjassi) والكتيب بعنوان حقائق حول أفريقيا البرتغالية ، والمقدمة مقتطفة من مؤلف ديفدسون « اليقظة الأفريقية » .

بالرغم من القوانين الصورية التى تقول بتحريم العمل الإجبارى ، وبالرغم من جميع التصريحات القائلة بعدم مشروعيته ، تمارس حكومة سالازار نظام السخرة بحد السوط والعصى والنار أيضا .

وكنتيجة لهذه الوضعية الضاغطة يشحن ١٠٠ ألف عامل موسمياً إلى

مناجم جنوب أفريقيا ، ويجبرون على المساهمة فى الاقتصاد الأوربى بشروط تضر إلى أقصى الحدود بالتقدم المحلى .

ويطارد كل بالغ من الرجال لتوفير الأيدى العاملة ، التى تجمع أعداد هائلة منها للتصدير وهى عملية يعتمد عليها اقتصاد البرتغال أساساً وبصورة كاملة كمصدر العملات الأجنبية ، وتشحن أعداد أخرى للجزر والاقطاعيات والاحتكارات الأوربية ، وجميعها عصب الاقتصاد البرتغالى وكنتيجة لعملية المطاردة والشحن هذه — غالباً ما ينشأ نقص فى الأيدى وبين البالغين فى الأقاليم الداخلية ، وفى القرى تلجأ السلطات لاستغلال النساء والأطفال فى حالة شح العمال الذكور فى تلك المناطق .

وكل افريقى مطاب ببناء الطرق والجسور المـــارة بقريته ، وكل مفتش منطقة مسئول عن رصف هذه الطرق وبناء هذه الكبارى ، وعليه أن يلجأ للوسيلة التى يراها ، وله مطلق الحرية فى ذلك مادام العمل المطلوب سيتم ، ولذلك غالبا ما نرى نساء حوامل أو مرضعات يحملن أطفـــالا رضعا على ظهورهن ، وفتيات صغيرات يعملن على جانب الطريق المار بقراهن بأدوات بدائية للغاية ، وهن مطالبات فى أغلب الأحيان بتوفير غذائهن وبجلب هذه الأدوات الهزيلة إلى مكان العمل متى ما طلبن للعمل أيضاً .

ومن أهم مستوعبات الشغيلة محلياً مزارع قصب السكر والبن والسيسل Sisal وجميعها مزارع يملكها البيض . وتأتى المناجم فى المرتبة الثالثة من حيث استيعابها للعمال ، ذلك أن التصدير يأتى فى المرتبة الأولى والزراعة فى المرتبة الثانية وتحتكر مناجم الماس فى مديرية لواندا معظم هؤلاء . ولواندا المديرية من حيث الحجم تعادل نصف مساحة انجلترا ، وتحتكر « شركة ماس لواندا » أربعة أخماس المستعمرة وحق تسخير جميع عمال المديرية ، متى أرادت .

إن هذه التقارير تؤكد بشاعة نظام العمل الاجبارى الذى هو أسوأ ما يدمغ الاستعمار البرتغالى فى أفريقيا .

إن انعدام التعليم وفقدان العناية الصحية الشديدة ، وإنتفاء الحقوق السياسية انتفاء تاما ، وتحريم منظمات العمل وكل المؤسسات الشعبية إنما هو وضع يستند نظام العمل الإجبارى ، ويؤدى إليه بالضرورة .

ويقول باسيل ديفدسون فى كتابه المشار إليه من قبل . « إن هذه الحالة سوف تهز القارىء البريطانى بالتأكيد ، غير أنه يجب أن لا ننسى أن شركة ماس انجولا هى احتكار بريطانى بقدر ماهى احتكار أمريكى ، ويقدر ماهى احتكار بلجيكى ، فأسهم بريطانيا تساوى ماتحمله كل من أمريكا وبلجيكا من أسهم . وأن شركة حديد لوبتو Lubtio ، (وهؤلاء أرباب عمل يعتمدون على استغلال الآيدى العاملة المتواجدة فى القرى الواقعة على طول خطوط السكك الحديدية التابعة لهم بالسخرة) ، هذه الشركة هى أيضا احتكار بريطانى ١٠٠٪ ، ويجب أن لا ننسى أيضا أن البرتغال تختبىء دائما وتحتمى بما تسمى بالصداقة البريطانية التقليدية .

ان مثل هذه الوثيقة هى دليل قاطع على أن الوعى الشعوبى الأوربى والإفريقى ، والتعاطف بين شعوب أوربا وأفريقيا هو ضرورة تاريخية وبديهية . ومن المعطيات اليانعة لهذا العصر ، أن أفريقيا مظلمة مقفولة تعنى أن أو لا قيمة لها ، وأن أمثال ديفدسون وسارتو وغيرهم دلائل عهود من التعاطف جديدة ومتعاظمة اليوم .

إنه عصر نسمع فيه صوتا أوربيا يقول « ليس حسنا يا مواطنى أنتم الذين تعرفون كل الجرائم التى ارتكبت باسمكم ، ليس حسنا أن تصمتوا فى مواجهة هذه الجرائم ، إنه شىء يفسد الانسان .

تبلغ مساحة أنجولا حوالى ٣٥٠ر٣٨١ ميلا مربعاً ، وهى بذلك تكبر « الوطن الأم » كما يحلو للاستعماريين أن يدعوا البرتغال بأربع عشره مرة ، وهى من أكبر الاقطار الأفريقية وتعتبر أنجولا والكنغو والسودان والجزائر أكبر أقطار فى أفريقيا .

ولقد مارست البرتغال تجارة الرقيق لفترة زادت على ٣٠٠ عام ، ولم تنقطع عن ممارسة هذه التجارة داخلياً حتى بعد صدور قانون منع هـذه التجارة . ولما لم يعد هناك مفر من الانصياع تحايلت البرتغال بخلق وسيلة جديدة للاستفادة من العنصر البشرى (الأفريقى) عن طريق الاتجار وأدخلت نظام العمل الاجبارى وتصدير الأيدى العاملة وهذا أبشع بكثير من الرق نفسه . وكلاهما يدر أرباحاً طائلة من تجارة الإنسان .

وأغرب ماتتميز به سياسة البرتغال هو أنها تتأخر وتستعصى بعناد على كل استجابة لروح العصر ، فهى تلغى امتيازات كانت قد وفرتها فى الماضى أو هى لم تضغطها على الأقل . ففى عام ١٩٣٥ ، كرد فعل لمطالبة عصبة الأمم « الدول الاستعمارية » بتقرير عن الحالة فى مستعمراتها — عدلت قانونها وحرمت المستعمرات من حق المطالبة بالاستقلال الذى يكفله لها — نظريا — الدستور بشكله القديم . وهى حرمت كل أشكال الاختلاط ، وحاربت الزواج المختلط بالرغم من تشدقها بنظام صهر المستعمرات فى بوتقة الحضارة البرتغالية ، وخلق مجتمع تتساوى فيه الفرص وتنصهر فيه الأجناس .

إن سالازار يشدد اليوم فى إلحاق المستعمرات أكثر فأكثر بالبرتغال مدعياً القيام بحملات « حضارية » وخلق مجتمع ينصهر فيه البرتغاليون والإفريقيون فى بوتقة واحدة ، الواقع أن تلك القوانين صورية ولم توضع إلا لتوكيد سيادة البيض ولتدعيم سياسة البرتغال الإستعمارية .

تقول دينس بولم في مؤلفها بعنوان « الحضارات الإفريقية » : إن داخل إفريقيا من أنجولا حتى قنال الموزمبيق قــد عرف ، حسب ما تسمح به التحريات الجديدة عن الناحية البشرية والآثار القديمة الموجودة بهذه المنطقة ، تقول دينس بولم أنه من المعتقد أن تكون هذه البقاع قد عرفت حضارة واحدة .. فالتقاليد الأصلية غير واضحة تماماً ، ولكنها تفيد على الأقل بأنها خارج ممالك لونغو . والكنغو كانت هناك ممالك قوية ذات حكام من أصل واحد » .

ففي شرق لونغو والشمال الشرقي من الكنغو كانت توجد مملكة أنيسكا eniske التي تسكنها قبائل الياتيكي والبياكا ، كما تمتد جنوب مملكة الكونغو وعلى طول ساحل المحيط مملكة ندجو التي يحمل حاكمها لقب (نجولا) ، ومنه أخذ البرتغاليون اسم أنجولا ، وإننا لانملك معلومات كثيرة عن هذه المملكة قبل مجيء الأوربيين اليها ، وهذا أمر طبيعي فاننا حتى اليوم نملك معلومات قليلة عن الافريقي المعاصر الذي يعيش داخل حدود هذه المنطقة بسبب المصادرة وحرب الابادة الحضارية والثقافية التي شنها الاستعمار البرتغالي ليدعم ويبرر سيادته عليها .

الملامح الحضارية لشعب انجولا

وتضيف دينس بولم « وهناك عنصران أساسيان ينتظمان هذه المنطقة بطابع حضاري واحد » .. الارتباط بالأرض التي تقدم الخيرات ويحمل هذا الارتباط طابعا دينياً ، ثم عبادة الأجداد . وتؤلف هذه العناصر ملامح الشخصية الأم لدى قبيلة الجيوكومو المشهورة مثلا وهي القبيلة الأم لعصبة الأميد إحدى قبائل أنجولا .

وعملية الابادة الشاملة التي نواها ويمارسها البرتغاليون هي امتداد لسياسة الغاء تاريخ أفريقيا ، ولصق صفة القارة المظلمة بها حتى يكون

الفصل للاوربيين فى إضاءة وجهها بحضارته وثقافاته . وهى أيضا قول يردد للتدليل على كون استعمارها أمراً لا مفر منه مادامت قارة بلا حضارة

ومن أشهر قبائل أنجولا (الكيكونغو) وهم على الحدود الجنوبية للكونغوا والكيكونغو. وهذه القبائل تشارك جيرانها فى الموطن الجغرافى فى الكونغو وفى كينيا أسلوب حياة وعادات مشابهة مما يؤكد أن أغلب السياسية ماهى إلا حدود اصطنعها الاستعمار عند دخول أفريقيا واحتلالها وتمزيقها وتحطيم الحكومات والمجتمعات التى كانت سائدة قبل غزوه.

كذلك فمن أهم وأكبر قبائل أنجولا قبيلة « أويمبوند و Ouimdindo وتعيش فى الوسط والجنوب الغربى ويقدر تعدادها بحوالى مليون و نصف مليون نسمة ويتكلمون الاميندوا وهى إحدى اللغتين المكتوبتين فى أنجولا وهى لغة قبائل الجنوب الغربى التى تعيش على الحدود الشمالية الشرقية لاتحاد جنوب أفريقيا وغربى روديسيا ، وهم بالرغم من ذلك متخلفون نسبيا ، وذلك بسبب تعصبهم ورفضهم لأى إستجابه لأساليب حياة البيض المستوطنين ، وهم فى شبه عزلة عن حضارة ومدنية البرتغال ، وتقع فى أرضهم مناجم الذهب والبترول والحديد والمنجنيز ، ويحتكر نظام العمل الاجبارى طاقاتهم البشرية والطبيعية فى أشكال استثمارات أوروبية كبيرة ولقد أخذت الكاثوليكية بالانتشار بينهم فى السنوات الأخيرة .

تلى ذلك قبيلة « الكيمبوندو kimboundo ويتحدثون لغة الكومبندو التى تفهمها الأويمبندو أيضاً. والنفوذ البرتغالى متغلغل بصورة واسعة بين هذه القبيلة بالذات ، وبالإمكان إعتبارهم ، قياسا على ذلك ، متقدمين نسبياً على غيرهم من قبائل أنجولا ، وأغلب المتمدنين من أبناء هذه القبيلة .

أما قبيلة كنكونغو فتقع مواطنها على حدود الكونغو ، ويشترك

شعبها فى كثير من عاداتهم وتقاليدهم مع الكنغولين ، وحضارتهم ذات طابع مشابهة . وهناك أيضا قبيلة وهناك أيضا قبيلة الكونهاما ، وهم من أقوى المحاربين وأشدهم بأسا ، وقد أنفقت البرتغال ٣٠٠ عام فى محاولة اخضاعهم وهم حتى اليوم يتمردون عليها ويستعصون على جامعى الضرائب ويرفضون دفعها ويتجاهلون قانونا ما فلا يخضعون للسلطة البرتغالية . ولم ينجح البرتغال حتى اليوم فى ترويضهم ، ولقد اندلعت من بينهم أول انتفاضة على الفاشية البرتغالية عام ١٩٥٤ بقيادة الزعيم القبلى KAWATA.

وبصورة عامة فإن أغلبية قبائل أنجولا من المجتمعات الأفريقية التى تتعصب لتقاليدها وتصر على رفض الجديد ، وكل ماهو خارجى ، وخاصة إذا كان مفروضا عليها . فالذهب — مثلا — وهو من أقوى عناصر انهيار هذه المجتمعات ، لم يستخدم كنقد متداول لزمن طويل بالرغم من أن سكان السواحل قد رأوه يستخدم كنقد للتداول فى أيدى التجار بالتأكيد ، سوى أنهم لم يخطر ببالهم أن مثل هذا المعدن يمكن استخدامه فى مثل هذه الأغراض الدنيئة .

ولقد ظل أداة للتمييز — كما تقول دنيس بولم — وانقلب إلى نوع من الحلى للزينة والطلاسم . ولقد كان هذا الرفض فى استعمال الذهب كنقد للتبادل فى قسم كبير منه عملا مناهضاً للإدارة الأجنبية .. إلى أن تبين الإفريقيون ما فى ذلك من خطوره . وقد وضح جشع البرتغاليين فى الحصول عليه .

وهناك قبيلة ألامبو التى تقطن الجنوب والجنوب الشرقى من أنجولا على الحدود الشمالية لروديسيا ، وكذلك قبيلة كيكونغو وكيوكيو فى الشمال والشمال الشرقى من أنجولا هى فروع من القبيلة الأم الكيكويو المشهورة والتى نزحت بعض عشائرها من كينيا واسطونت الكونغو والغابات المحيطة بها ، واستقرت بعضها فى أنجولا .

ويحدثنا جومو كينياتا فى مؤلفه المشهور « فى مواجهة جبل كينيا » Facing Mount Kenya عن تاريخ هذه القبيلة وعادات أهلها وحضارتهم بإسهاب وتقل الأسطورة الإفريقية : عند بداية الخليقة قسم الآلة (موجاى) العالم إلى أقاليم أعطى كل إقليم لأمة وجنس على الكرة الأرضية ، وأعطى (جوكويو) إقليما مليئاً بالخيرات وأن يقيم بيتاً لنفسه ولاحفادة ، فبنى جيكويو وزوجته مومبي أول بيت لهما وكان أبناء وبنات وبمرور الزمن تزايد الناس بسرعة لتزايد الزوجات والغذاء الجيد الذى قدمه الأرض لهم ، وتكاثف السكان لهذا السبب ، وقدر بعض الناس أن ينتقلوا تجاه الجنوب ويحصلوا على أرض فى الغابات القريبة .

وكان يسكن الغابات جنس من الناس يسمى جومبا (أى الأقزام) يشتغلون بالصيد ، وكانو قصار القامة أقوياء البنية ، ولكى يتجنبوا الأغراب حفروا خنادق تحيط بقراهم تحت الأرض ، وبمجرد أن يروا غريبا يجرون بسرعة تحت الأرض ويظهرون من الناحية الأخرى ، وتعجب الجيكويو من ذلك أيما عجب ، لأنهم اعتقدوا أن لدى هؤلاء الأقزام سحر يفتح لهم الأرض ليختفوا داخلها حسب رغبتهم . وتقول الأسطورة أنهم اختفوا ذات مرة تحت الأرض ولم يظهروا مرة أخرى ولا يعرف أحد ما حدث لهم ، ويرجع سبب اختفائهم إلى فشلهم فى السحر الذى أنجزوه أثناء دخولهم فى بيوتهم تحت الأرض ، وعندما ابتلعتهم الأرض أصبحوا غير قادرين على إتمام سحرهم حتى يمكنهم العودة إلى الحياة مره أخرى .

والمسألة هى أن هذا الجنس لم تبتلعه الأرض، كما تقول القصة القبلية، ولكن هناك قولان لأسباب اختفاء الجومبا :ـ

الأولى أنهم تحركوا تجاه الشرق تجاه الكونغو ، حيث توجد عناصر مشابهة لهم من الناس .

الثانى هو أنهم ربما تزاجوا مع رواد الكيكويو الأوائل الذين خاطروا ودخلوا الغابة على نفس نمط حياة الجومبا ، وأنجبوا جنساً من الصائدين عرف بإسم لدرويو ، ولم يكونو — بالطبع — كسابقهم قصـــار القامة ولكنهم كانوا وسطاً بين الجومبا والجيكويو فى أحجامهم .

ومن هؤلاء الندروبو ، وهم من فصيلة البوشمان ، من استقر فى أنجولا وعلى حدود الكونغو حيث تقع اليوم حدود سياسية تفصل أبناء القبيلة الواحدة وتقسم موطنهم .

وفى أسطورة أفريقية أخرى تلقى ضوءا على تسلسل نسب الجيكويو التى يتفرع منها قبائل الأمبو والكيويو ، تقول هذه الأسطورة :

أنه عند بداية الخليقة عندما بدأ الجنس البشرى يسكن الأرض ، استدعى الآلة (موجاى) مقسم الوجود الجيكويو مؤسس القبيلة وأعطاه أرضاً وأنهاراً وغابات وفى نفس الوقت صنع الموجاى جبلا ضخما أسماه كيريناجا كمقر لراحته بعد الطواف ثم أخذ الجيكويو إلى قمةجبل الأسرار (الكوجور) وأشهده جمال وبهجة الأرض التى منحها له ، وبينما هما على قمة الجبل نظر الجيكويو إلى شجرة ضخمة وبعد ، أن أراه جمال الخليقة أمره أن يهبط الجبل ويقيم على المكان الذى اختاره وسماه مكيرف اتانجا . وقبل أن يفترقا أخبره أنه حينما يحتاجه فى استطاعته أن يرفع يديه تجاه جبل كينيا (جبل الأسرار) وهناك يجد سيد الطبيعة فى خدمته .

وفعل الجيكويو ما خبره به الموجاى ، وعندماوصل إلى البقعةالمحدودة وجد أن الإله أمده بزوجة جديدة سماها مومبى وعاشا سوياً فى سعادة وأنجبا تسع بنات ولم ينجبا إبناً واحدا ..

وكان الكيكويو شديد القلق لأنه ليس له ابن ذكر يرثه ، وفى غمرة يأسه دعا الموجاى أن يرشده سواء السبيل ، فدعاه إلى عدم الإضراب وأن

يتذرع بالصبر ووعده بأن كل الأمور ستسير وفق ما يريد ، ثم أمره قائلا « اذهب وخذ شاه - جديا من قطيعك واذبحهما تحت شجرة التين الضخمة قرب بيتك ، وصب دم الحيوانين على جذع الشجرة ، ثم اصنع وأسرتك نارا ضخمة تحت الشجرة واحرقا اللحم وعندما تفعل ذلك إذهب أنت وزوجتك وبناتك إلى دارك ثم عد ثانياً إلى الشجرة المقدسة وستجد عندئذ تسعة رجال يرغبون فى زواج بناتك تحت أية شروط ترضيك أنت وأسرتك. وفعل الجيكويو ما أمره به الموجاى ، وعند عودته للشجرة وجد تسعة رجال قاموا بتحيته بحرارة ولم يتفوه الجيكويو ببنت شفة من شدة غبطته لعدة لحظات وعندما هدأت ثورته العاطفية أخذ الشبان إلى بيته وقدمهم لأسرته وعوملوا معاملة كريمة فأعد الطعام اللازم لهم ، ثم ذهبوا أثناء إعداد الطعام إلى نهر قريب فاغتسلوا ثم تناولوا طعامهم وذهبوا بعد ذلك إلى حجرات النوم .

وفى صبيحة اليوم الثانى أيقظ الجيكيو الشبان التسعة ليتناولوا معه طعام الإفطار وعندما انتهوا من الأكل بحث موضوع الزواج على شريطة أن يوافقوا على أن يعيشوا وفق نظام الأمومة أو نظام حكم الأم . وعقد الزواج مباشرة وأصبح أسمهم « أسرة مومبى » إنتسابا إلى شرف أمهم مومبى طبقاً لشروط الزواج ، وواصلت الاسرات التسعة العيش سويا تحت رعاية الوالدين كرؤساء لأسرة مومبى ، وبمضى الزمن تضاعفت كل أسرة بصورة سريعة وأصبح من المستحيل أن يعيشوا سويا دون أن يكونوا عشائر وأسر ، فاتفقت الأسرات على أن تستدعى كل بنت أحفادها ويكونوا عشيرة تحت رعايتها الخاصة ، ولذا فقد تكونت العشائر التسع للجيكويو ، وكانت أسماء العشائر هى أسماء بنات الجيكويو : أسيرا ، جاشيكو ، أرينو ، أمبو ، انجار ، انجو ، اثاجا ، اثراندا . ومن هنا أيضا نشأ نظام الأمومة ، ونظام الانتساب إلى الأم .

وتنظم معظم هـذه القبائل ، كما قلنـا ، عناصر حضـارية متشابهة أكثرها رواجا الولاء للأرض أو الارتباط بها بصورة قوية ، وعبادة الاسلاف .

وقد كان هذا الولاء الشديد للأرض سببا فى البلاء الذى حل بالكثير من المجتمعات الأفريقية التى كانت تؤمن بنقاء أقرب للسذاجة بأن الأوروبيين الذين ظهروا على أرضهم وأبدوا رغبة فى الإقامة عليها ، والذين لم يتوان الأفريقيون عن معاملتهم بكل كرم وسخاء ، بل فى مبالغة على اعتبار أنهم ضيوفهم ، لابد راحلون عنها مهما طالت إقامتهم عائدين إلى بلادهم وإلى الأرض التى يرتبطون بها ، والتى لاشك يشتاقون إليها . ويدفعهم هذا الشوق إلى العودة إليها يوما من الأيام . ويقول جومو كينياتا فى حيازة الأرض وقدوم الأوروبيين إلى أفريقيا : أن الأفريقيين ، عند قدوم الأوروبيين إلى بلادهم ، منحوهم حق حيازة الأرض دون ملكيتها ، وذلك باعتبارهم ضيوف يجب إكرامهم ، وقبل هذا يقص قصة قصيرة عن عراف من الجيكويو إسمه موجو كبيرا ، تنبأ بقدوم الأوروبيين .

وتقول قصة العراف كبيرو ، أنه كان يعيش ذات مرة ساحر كبير اسمه موجووا كبيرو وكان واجبه الوطنى أن يتنبأ بأحداث المستقبل وأن يخبر الأمة بالغيب لـكى تستعد له . استيقظ العراف ذات صباح وهو يرتعد ويرتعش ولا يستطيع الكلام وكان جسمه مليئا بآلام ، وخافت زوجاته عنـدما رأينه على هـذه الحال ، وأصبحت فى حالة هستيرية لأنهن لايعرفن ماجدت لزوجهن الذى ذهب إلى فراشة موفور الصحة فى الليلة السابقة .

وحضر الشيوخ ليقدموا تضحية للاله ويسألونها عما تنبأ به الرجـل الـكبير عما جعله فى هذه الحالة السيئة ، وعند وصولهم ذبح جدى وجلس

كبيرو العراف على جلد الذبيحة ، وأخذ أحد الشيوخ دم الحيوان وخلطه بالزيت وصبه على رأسه ، وفى ذات الوقت كان بقية الشيوخ يرددون الترانيم الدينية ، وما لبث كبيرو أن استعاد قدرته على الكلام وبدأ يقص نبوءته ، فأخبر الشيوخ بأنه أثناء نومه أخذه الإله إلى أرض بعيدة غير معروفة ، وكشف له عما سيحدث لشعبه فى المستقبل القريب، وعند سماعه ذلك ارتجف وحاول أن يتوسل إلى الإله أن يمنع هذه الحوادث لكنه لم يكن فى وسعه بعد تعبه إلا أن يطيع أمر الإله ليعود ويخبر شعبه بما سيحدث .

ثم واصل قصته ، وفى صوت متهدج خافت ذكر أن غرباء سيأتون إلى أرضهم واون بشرتهم يشبه لون الضفادع الصغيرة البيضاء التى تعيش فى الماء وسيجعلون معهم عصى سحرية تطلق النيران (وهو يقصد بذلك البنادق) ، وسوف تكون هذه العصى أشد فتكا من السهام المسمومة ، وسيحضر الغرباء فى جبة حديدية (يقصد القطار) تنبعث منها النيران ، ويسيرون من الماء فى الشرق إلى الماء فى الغرب (يقصد من المحيط إلى البحر الأحمر) وعلاوة على ذلك فقد ذكر أن مجاعة آتية لاريب فيها ، وهذه علامة قدوم الغرباء ، وعندما سيحل هذا الخطاب سيقاسى الناس وجيرانهم المصاعب . وحذر من حمل الأسلحة ضد الغرباء القادمين لأن ذلك سيكون كارثة على القبائل . فى استطاعت القادمين أن يقتلوا الناس من أماكن بعيدة بعصيهم السحرية التى تطلق النيران .

وغضب المجربون عند سماعهم ذلك وقالوا أنهم سيحملون الاسلحة ليقضوا على الحية الحديدية والغرباء كذلك، ولكن العراف هدأ من روعهم وذكر لهم أن أحسن وسيله هى إقامة علاقات ودية مع الغرباء القادمين لأن الحراب والسهام لن تخترق الحية الحديدية ..

ونصح الطبيب الساحر الناس بأنه عندقدوم هؤلاء الغرباء. فإن أحسن سياسة هى معاملتهم برقة ممزوجة بالشك ، وأن يكونوا حريصين فلا يقربونهم من منازلهم ، لأن هؤلاء الغرباء لهم أعمال شريرة ، ولن يترددوا فى أن يطمعوا فى منازل الأهالى ، وفى النهاية يحاولون أخذ كل شىء .

واضطرب الناس عند سماعهم ذلك ، ولم يعرفوا ماذا يفعلون سوى الانتظار لمواجهة الأخطار المقبلة ، وبعد عدة أشهر بدأ الخطر المرتقب يظهر وبدأت جماعات من الغرباء تصل وتنتشر بين الناس وانتشر وباء أودى بحياة قطعان كبيرة من الماشية مما أدى إلى المجاعة .

وبدأ أوائل الأوروبيين يفدون ويمرون على الحدود ويذهبون مابين السواحل والممرات المائية تماما كما قالت النبوءة ، وتاجروا فى البدء مع الأهالى وقايضوهم سلعهم بسلع أخرى ، وعاملهم الأهالى كما أمرهم العراف

ولقد استمر الأهالى فى البدء إلى النظر إلى الوافدين الغرباء على أنهم ضيوف ومهاجرون من أوطانهم وفى حاجة إلى اصدقاء ، وشعر الأهالى كنتيجة طبيعية للكرم المتأصل فى نفوسهم بالعطف نحو هؤلاء الغرباء ، ورحبوا بقدومهم وبدأوا يسمحون لهم بأن يقيموا خيامهم وأن يزرعوا أرضهم على أساس حق الزراعة فقط . وكان هذا كله مرجعه اعتقاد الأهالى بأن الأوروبيين سيتعبون يوما ما من الترحال وسيعودون إلى بلادهم التى يرتبطون بها ويحنون اليها .

واستغل القادمون الفرصة ، وبدأوا يبنون معسكراتهم وقلاعهم بحجة أن غرض هذه « المحطات » هو تكوين مراكز لشراء الطعام للقوافل وهى فى طريقها من مكان إلى آخر .

ومنح الأهالى حق بناء بعض الأماكن للأوروبيين وظنوا أن ذلك لمجرد التجارة فقط ، ولم ينتبهوا إلى أن ذلك بداية للاستيلاء على أراضيهم وأقام الأهالى مع ذلك علاقة ودية مع الأوروبيين وأمدوهم بالطعام على أمل عودتهم ثانيه إلى أوطانهم وأنهم سيحنون اليها فيبيعون بضائعهم ويعودن إلى آبائهم وأسرهم .

وتأكد ذلك الشعور لأن الأوروبيين فى البدء لم يكونوا يستقرون فى مكان واحد ، وكان الأهالى يقولون « ليس هناك شيء خالد أوشيء يعيش إلى الأبد » وسوف يعود الأوروبيين دون شك إلى بلادهم ، واتخذوا ذلك شعاراً لهم فى أغانيهم .

ثم ما لبث أن حدث بعض الحوادث وأطلق الأوروبيين من عصيهم السحرية النار على الأهالى وفرضوا الغرامات ، وبدأ الناس يقاطعون التجارة على أمل تجويع الأوروبين فيرحلو ، ولكنهم بدأوا يحصلون على طعامهم بالقوه وتحققت نبوءة العراف عند مد « السكك الحديدية » وتقاطر البيض داخل الحية الحديدية وبدأوا بعد ذلك المطالبة بحق حكم البلاد وملكية الأرض وسموها أرض التاج ، فى مكان ، وحدود إقليمية فى مكان آخر ؛ وفقد الأهالى معظم أراضيهم وبالتدريج صاروا لا يملكون شيئا ، يحرمهم القانون من ذلك ، غير أن معظم الأراضى الأفريقية كما نرى فى كينيا وفى الكميرون وفى جنوب أفريقيا والبرتغال الأفريقية لم يتم الاستيلاء عليها بحق الفتح ، وإنما بوضع اليد .

القيم الافريقية :

ويقول جوموكينياتا فى مؤلفه « فى مواجهة كينيا » يتبين من هذا أن الرواد الأوائل للدين المسيحى لإفريقيا لم يدخلوا فى اعتبارهم الإختلاف

بين الديانة المسيحية وبين حياة الفرد الإفريقي بعاداته وتقاليده ، التي انحدرت اليه جيلا بعد جيل ، وفشلوا في أن يدركوا أن رفاهية القبيلة واستقرارها ترتكز على تضامنها ووقوفها صفاً واحداً ، فعندما وصل رجال الدين الغربيين نظروا إلى عادات وعقائد الأفريقيين نظرة إزدراء لأنهم لم يفهموا كنهها ، وأصرت البعثات التبشيرية أن تفرض على متتبعيها من المخاصين للمسيحية ألا يتزوجوا إلا بامرأة واحدة كأساس للعقيدة المسيحية الصحيحة وأن يهجروا الرقص والحفلات والولائم ، وهي مبادىء أساسيه للبناء الاجتماعي الأفريقي ، وأخذ الافريقيون بدورهم ينقبون في الانجيل عن هذا السبب فلم يجدوا شيئاً في الكتاب المقدس .

ولم يكن أمام الافريقي إختيار ، فقد وافق على مضض أن يتبع هذه الشروط المجحفة بحقوقه أملا في أن يحصل على شيء من التعليم الذي تقدمه مدارس البعثات التبشيرية ، وكان الشباب شغوفين بتعلم القراءة والكتابة، وتلك المعرفة التي اعتبروها القوة السحرية للرجل الأبيض .

ولقد أغرى الأوروبيون الأهالي على ترك عاداتهم قياساً على المفاهيم الأوروبية التي تحقر التقاليد والعادات القبلية ، وتصنفها في مترادفات الهمجية والتخلف . ولم يعطى الأفريقي في مقابل ذلك أرضاً صلبة من الثقافة والحضارة المقنعة يقف عليها ، وكان لهم غرضهم بطبيعة الحال خلف ذلك جميعاً ، وكل ما بشروا به هو أن الرواسب القبلية أمور متخلفة وبعيدة عن روح العصر وعن المسيحية وعن التحضر . ويفخر الأوروبيون ، فيما يفخرون ، بأنهم خلصوا الأفريقيين من الحروب القبلية ولكن علينا أن نذكر أنه حل محل ذلك حرب أعلنتها أوروبا باسم المدنيات والمسيحية وبحجة الدفاع عن الديمقراطية ، ومن وراء ذلك مات الألوف من الأفريقيين في الحروب الاستعمارية ، في الحـــرب العالمية الأولى

والثانية ذهب الافريقيون دفاعا عن قضايا لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، ومع ذلك كانت مكافأة الافريقيين عن تضحياتهم هي اغتصاب أراضيهم الطيبة وفرض الضرائب عليها ، وعدم السماح لهم بحرية الكلام والصحافة وأي تنظيم سياسي أو اجتماعي ، بينما دمرت حملات الغزو ، وبعثات أوربا الروحية والحضاريه المجتمعات الافريقية ، ولم تمنح الافريقيين لا أمنا ، ولا مؤسسات جديدة .

والاستعمار بقضائه على الروابط القبلية قضى على آلاف من الأسر الافريقية وشتتها ، وتتمثل أبرز عوامل انهيار الاسرة الافريقية في نظام العمل الاجباري . وإذا علمنا أن مفتاح الثقافة عند الافريقي هو النظام القبلي وأهم ما في نظام القبيلة هو الأسرة ، فالأسرة هي القاعدة الأساسية في الحياة الاجتماعية ، وهذه الحقيقه الحية عن الاسره شيء هام ، لان الاسرة أساس كل تنظيم سياسي واجتماعي عند الافريقي والفرد يشارك في الشئون القبلية عن طريق أسرته ، وينعكس وضعه في التظيم العام للقبيلة عن طريق أسرته ، فالفرد لا يفكر في نفسه كوحدة اجتماعية ان الافريقي يشعر بالاسرة أكثر من شعوره بالوحدة الكبيرة الممثلة في الدولة أو القبيلة .

ويقول جوموكينياتا أيضا : إن منبع الحياة وحقل العمل والرباط الذى يشد العلاقات الاسرية الارض والاسره . ففي مجتمع زراعي يجب أن يكون التنظيم الاجتماعي نابعا من الارض . ولو ترك الاوربيون الافريقي وشأنه ولم يسلبوه أرضه ، ولو قدموا له خلاصة حضارتهم ، وحصاد تجاربهم وعلمهم وتركوه يختار ما يريده من الثقافة الاوربيه ويطبقها مع ما يتلائم مع بيئته ، فلم يكن الافريقي ليختار بالتأكيد القنابل أو القوة المسلحة ، لكنه كان ليأخذ ما يفيده فحسب ، مانحا العالم أيضا — مقابلا — من حضارته وثقافته التي صودرت وأبيدت

تاركة اياه فى حال من التخلف والهمجية التى يطرب لها الاوربيون ويشيرون اليها متفائلين مؤكدين أحقية الرجل الابيض بالسيادة والسمو لتفوقه . . الخ .

ان الاوربى وهو يطرد الافريقى عن أرضه سلب منه الاساس المادى لثقافته وأصبح فى منزلة العبيد ، والافريقى الذى تطبع على الحرية خلال معيشته فى كنف حياته الاجتماعيه والثقافية . لن يقبل العبودية الى الابد ، وهو مؤمن بأنه يجب أن يحارب من أجلها وينتزعها ، فبغير سبيل النضال سيبقى تحت نير الاستعمار الذى يجد كل يوم وسيلة للتنكيل به والابقاء عليه فى حالة من البؤس والانهاك .

ان الافريقى بغير النضال سيبقى تحت نير الاستعمار الذى سينشب مخالبه فى حيويته وثقافته وآدميته جميعا .

ويقول كينياتا حول الأرض « إن أى انسان يريد أن يفهم مشاكل الجيكويو عليه أن يقوم بدراسة مشكلة ملكية الارض لانها مفتاح حياة الشعب ، وهى تمده بحاجياته المادية ، وتساعده على اتمام سحره وحفلاته التقليدية فى هدوء وصفاء وهم يولون وجوههم تجاه جبل الاسرار (جبل كينيا) . وهذا القول ينطبق على كثير من المجتمعات الافريقية .

الارض . .

لقد تحددت مأساة الافريقى منذ الغزو الاوربى بالارض وحيازتها فمن خلال الاعتقاد البرىء النقى بأنها هى أم القبيلة ، وأن كل آدمى ينتمى الى أرض هى أمه ، ومن ثم فمن الصعب تصوره نازحا مهاجرا بعيدا عنها بصورة دائمة ، تنازل الافريقيون عن كثير من حقوقهم

للاوربيين بنية صافية على اعتبار أن كرم الضيافة المتأصل فيهم يدعوهم للعطف على هؤلاء « الغرباء » ومنحوهم خلال ذلك حق زراعة الارض وحيازتها دون امتلاكها .

ولقد رأينا كيف أن الاوربي فيما مضى كان يطلب الارض فى عمليات الغزو . . الاولى بالقوة وبالحروب ، أصبح اليوم يتسلل الى ما على الارض بتحايل ودبلوماسية هى آخر تطورات الايديولوجية الاستعمارية ؛ وأنه اذ يلجأ اليوم الى آخر أساليبه يحاول جاهدا وفى استماتة اطالة عمره على الارض الافريقية التى لم يترك لابنائها خيار سوى اقتلاعه بالقوة التى هى سلعة من صنع الاوربى أصلا .. الإفريقى لم يعرف العنف قبل مجىء الاوربى الى أرضه ، فحتى الحروب القبلية لم تكن لتؤدى بنسبة على الااف من العدد الذى أودى به الاستعمار خلال عمليات الاستيلاء والغزو والارهاب والقمع وسوء التغذية ومختلف النكبات والكوارث التى جرها عليه ، ولم يعرف الافريقى خلال تاريخه الطويل مثل الويلات الخرافية التى أتى بها الاستعمار الى أرضه الصبية الآمنة .

والقصة التالية توضح العلاقة بين الاوربى والافريقى ، ويبدو الافريقى بمفهومه النابع أساسا من أصالته وولائه للارض وعجزه — فى البدء — عن أن يفهم كيف يبتعد انسان عن أرضه ، وكيف يتسنى له العيش بعيداً عنها وهى التى ترتبط بها ، ويحن اليها ، وهى التى تعكس نظرته للعالم وعلاقاته به ، وهى اطار حضارته وتاريخه وثقافته وتراث أجداده وأسلافه الذين يمنحهم ولاءه فيما يشبه العبادة .

وتقول القصة الافريقية . ذات مرة أقام فيل مع رجل ، وزمجرت

عاصفة ذات يوم فذهب الفيل الى صديقه ، وكان لهـــذا الصديق كوخ صغير على طوف الغابة ، وطلب منه الفيل أن يسمح له بوضع خرطومه داخل كوخه ليحميه من العاصفة ، فقال الصديق . ان كوخى صغير ولكن توجد حجرة تكفينى وتكفيك ، فشكر له الفيل حسن صنيعه ووعد برد الجميل ، ولكن ما حدث بمجرد أن وضع الفيل خرطومه داخل الحجره أن أدخل رأسه ثم ألقى بصديقه خارج الكوخ فى المطر . ثم قال له بعد أن دخل الكوخ . ان جلده أخشن من جلد الفيل ، وبما أنه لا توجد حجرتان ، فيمكنه أن يقف فى المطر ليحمى الفيل جلده الرقيق من العاصفة .

وبدأ الرجل يهدد غضباً ، وأخذ الفيل يستوضحه الأمر ، وأثناء ذلك جاء الأسد يزأر وهو يقول . انكم تسلمون جميعاً أنى ملك الغابة ، فكيف يجرأ أحدكم أن يقض مضجع الملك ؟ فقال الفيل انه لا يوجد اضطراب ولكن هناك مناقشة بينه وبين صديقه حول الكوخ الذى وجده الأسد فيه ، فأمر ملك الغابة بتشكيل لجنة لبحث الموضوع وتقديم تقرير عنه ، وطلب الرجل أن ينتظر التقرير ؛ فشكره الرجل لأنه أقام صداقة مع أحد وزرائه وفرح الرجل للكلمات المعسولة وانتظر على أمل عودة كوخه . وشكلت اللجنة من كل الحيوانات ، ولما طلب الرجل تعيين انسان عضوا فى اللجنة رفض طلبه لأن الانسان لا يفهم قوانين الغابة .

وسألت اللجنة الرجل ، وكان غريمه الفيل قد أتحف الاعضاء بأكالة دسمة ، سألته عما اذا كانت أرض كوخه قد شغلها أحد قبله ، ولما أجاب بالنفى اكتفت اللجنة بذلك وأصدرت حكمها فى صالح غريمه ؛ ووعدت الرجل بالبحث عن مكان مناسب لبناء كوخ جديد له .

ولما يئس الرجل من جدوى اللجان أخذ فى بناء كوخ جديد قرب

الأكواخ التى استولت عليها الحيوانات وكانت الأكواخ قد تهدمت .

وأخذت الحيوانات فى النهاية تتسارع على حق دخول الكوخ الذى بناه الرجل بعد أن ترك كوخه الأول ، وتحول الصراع الى حرب مما حدا بالرجل الى اشعال النيران فى الكوخ وسواه بالأرض ، ثم عاد الرجل الى أرضه بعد صراع طويل مع الحيوانات وهو يقول . ان السلام باهظ الثمن ولكنه يستحق ما ينفق من أجله .

الفصل الثالث

الحالة الاقتصادية

جميع القوانين والعرف المطبق فى المستعمرات البرتغالية يحرم الملكية أيا كان نوعها على الافريقى بقصد معروف تماما . . ذلك أن الافريقيين الذين كانوا يملكون كل شىء أصبحوا ، بعد هذه السنوات الطوال من الاستغلال ، لايملكون شيئا على الاطلاق . وحتى اذا ما وضع قانون من تلك القوانين والتشريعات التحايلية والتى هى فى أبسط مظاهرها مصادرة على المطلوب .. برزت الاستحالة المادية مكان النتيجة لقد انتزعت الأراضى على مر السنين وخلقت القوانين خلقا لاكساب عملية النهب والسلب مشروعية وقانونية .

وأساليب التحايل لدى المستعمريين البرتغاليين بدائية ومكشوفة على نحو فاجع ذلك أن البرتغال مازالت تمارس أساليب القرون الوسطى فهى بلد متخلف ، ولا تتجاوب معطيات واقعها مع روح العصر بحال من الأحوال ، والدكتور أنطونيو دى اوليفيرا سالازار يذكر — عند اللزوم أنصاف الحقائق كتبرير ودفاع عن النظام الذى يطبقه فى افريقيـــا البرتغالية ، ذلك إذا فكر أن يقدم تبريراً على الاطلاق ، كأن يقال مثلا . « إن الترقى من القطاع الافريقى الى الاوربى مسنون ومباح بحد القانون البرتغالى للوطن الام والمستعمرات » والحقيقة الصارخة وراء ذلك تقول ان شروط الترقى هى التعجيز بعينه ، بحيث يمكن أن يقال بأن النتيجة

موضوعه أمام التجربة مسبقا ، بمعنى أن هذا القانون لا معنى له ففيما يتصدر شرط ضرورة دفع ضريبة تساوى أربعة أضعاف قيمة كوخ أفريقى ، وضرورة التخلى عن العادات الافريقية ، والعيش على الطريقة الاوربية « واجادة اللغة البرتغالية كتابة وقراءة اجادة تامة ؛ واعتناق الكاثوليكية والجلوس فى مواجهة لجنة مكونة من ثلاثة أوروبيين وأفريقى للاجابة على اختبار وعر فيجعل كل هذا الامر مستحيل استحالة مادية . فبينما تترادف هذه الشروط المتبعة للترقى تقف الحقيقة بأن الافـــريقى فى المستعمرات البرتغالية لا يملك حتى كوخا لنفسه . ولا يستطيـع حسب المواصفـات السائدة هناك الحصول على تعليم نظامى بحال . ولا يملك المقـدرة على العيش على نحو أوربى . وهو أيضا بسبب ذلك جميعا غير راغب فى التخلى عن عاداته الافريقية . تقف هذه الحقائق البديهية عقبة قاطعة تعادل الاستحالة المادية لتطبيق قانون الترقى والاستفادة منه على وقاحته ولنستطرد قليلا فى ملاحظة الحالة الاقتصادية . انها بالتطابق تشابه أحوال الاستغلال الاوربى لافريقيا . فعمليات انتزاع الملكيات من أراضى وخلافه ، وفرض ضرائب الدخل المرهقة ، وتحريم التصرف فى المحاصيل ووقوف المستعمر كوسيط ابدى بين الافريقى وبين أبسط أسباب الحياة جميعها أساليب معروفة مورست من قبل بواسطة الاستعمار الفرنسى فى الجزائر والاستعمار البريطانى فى أفريقيا الوسطى وجنوب أفريقيا ، حيث يتشدق مستغلو الأهالى بوقاحة عجيبة بالقول بأنهم هم السكان الأصليون للبلاد ، وانهم أول من استثمر وفلح هذه الأراضى ، وأنهم عندما رسوا على السواحل لم يكن عليها ظاهرة واحدة لنشاط .. أو حياة بشرية .. المهم هو ان سالازار فى هذا الزمان يخاطب الرأى العام العالمى ويتصور أنه يقنع الفكر المعاصر بأن هذه المغالطات يمكن أن تنطلى بعد على أحد .. وهو إذ يكابر ويمارس منطق النعام ويعوى ككلب عاجز عن العض فالكلب الذى يعوى لا يعض كما يقولون ، عنـدما يفعل ذلك يتصور أنه يستطيع إطالة عمر حكمه فى أفريقيا ، ولا يدرى ، بسبب غفلته وجهله ، إن روح العصر

ما عادت تحتمله ، وأن تصدع نظامه فى أفريقيا سوف ياذن بانقشاع هذا النظام عن البرتغال نفسها ..

فلا يعقل أن يظل الفلاح الانجولى يفلح الأرض ويزرعها بالسخرة، ويستخرج ماس ومعادن أراضيه ويعيش إلى جانب قصور الاقطاعيين ، وعلى أرضه نفسها عيشة الدواب ، وأن يرضى بحياة انتفت عنها الأحوال المعيشية السائدة عن كل ما هو بشرى إلى ما لا نهاية . . إن وضع الأشياء عالميا يجعل هذا الحلم السلازارى أفكا كبيرا ..

تقول الإحصاءات الأخيرة ان ٧٠ ٪ من المحصول فى موزنبيق وأنجولا وغينيا من إنتاج المزارع الأفريقى ، وأن هذا المزارع مطالب بالعمل لتوفير هذه المحاصيل بأكثر الأدوات بداوة ، وأن الجهدالبشرى هو أرخص السلع المحلية فى أفريقيا البرتغالية . . ومعظم الأراضى التى التى انتزعت عنوة من أصحابها الاصليين هى اليوم ملك للمستوطنين . ويملك هؤلاء المستوطنون ، وهم أقلية لا تتعدى ١٠٠ ألف أوروبى أربع أخماس الأراضى المزروعة فى أنجولا . وأن خمسة أسداس محصول البن وهو المحصول الرئيسى ، ويعتمد عليه الدخل القومى فى جانب كبير منه هو ملك المستوطنين الذين استولوا على مزارعه خلال عمليات السلب المقنعة . ويستغل الأوروبيون أصحاب الأراضى الأصليين فى زراعتها مسخرين عن طريق نظام العمل الإجبارى الذى تحميه الحكومة، وتتغاضى عن الذين يمارسونه .

وتقول الاحصاءات : فى وادى كوانز (أنجولا) وحده ١٠٠,٠٠٠ هكتار من أخصب الأراضى ، وهى ملك المستوطنين الأوروبيين والشركات الاستعمارية .

وفى جزر ساوتومى جميع الاراضى الخصبة المزروعة كاكاوا وبنا فى

أيدى الأوروبيين ، وقد انتزعت دون أى وجه حق عنوة وبالعنف من أصحابها الأصليين وقد أجبرت عشرات من الأسر الأفريقية فى اقطاعية دى سيلا على الجلاء عن أراضيها لتحتلها عائلات الفلاحين البرتغاليين النازحين من البرتغال .

يتبع نظام الإقطاعيات فى توزيع الأراضى على المستوطنين بأن تستولى الحكومة على مساحة من الأرض ، ثم يتم استقطاع أراضى لعائلات الفلاحين الذين يجرى تشجيع الهجرة بينهم إلى المستعمرات على سبيل ربط مصالح الشعب أو إيهامه بذلك على الأقل بسياسة البرتغال الاستعمارية ، ومن ثم ضمان انطلاقه للدفاع عن هذه المصالح ، ومن أشهر هذه الإقطاعيات الكبرى ، شركة أنجولا الزراعية التى تملك مئات الهكتارات من الأراضى الجيدة الشديدة الخصوبة والتى تنتج أهم المحاصيل كالبن .

وثروات البلاد المعدنية تسلم للاحتكار أيضا ، فمناجم الماس الهائلة فى أنجولا هى ملك شركة ماس انجولا ،وهى إحتكار أوروبى تماما .. وتدل الإحصائيات أنه فى الأراضى التى لا تخضع لنظام الإقطاع الزراعى . وهى الأراضى الأقل خصوبة وأغلبها أراضى بور ، وتشمل المزارع الصغيرة جدا والتى لا تكفى احتياجات أصحابها من الإفريقيين الذين تتسلط عليهم الضرائب والمنافسة فى التسويق ، فى هذه المزارع يخضع المزارعون لقانون إنتاج المحصول الذى تحدده الدولة ، وتتحكم الدولة فى أسعار وطريقة تسويقه . فى موزنبيق وأنجولا تقصر حوالى ٦٠٠ أسرة على إنتاج القطن وحوالى ٦٠ ألف أسرة فى غينيا لإنتاج الفول . وهذه المحاصيل تستولى عليها الدولة لتبيعها للسماسرة من المستوطنين بأسعار اسمية جداً حتى أن هذه الحال الخانقة كثيراً ماتؤدى إلى تدهور أحوال الفلاحين الصغار بأكثر مما لو كانوا اجراء فى مزارع الإقطاعيين البيض ، هذا ولا يؤخذ فى

الاعتبار طبعاً ضريبة الإنتاج والجعل الموسمى الذى تفرضـه الدولة على المنتجين من الافريقيين .

وعلى هذا الأساس يرتفع ميزان الدخل مفرغابالتدرج ما فى الاكواخ الافريقية على هزالها ، فى جيوب وخزائن المستعمر . ونرى نتيجة لهذا النظام الاقتصادى المجحف أن الأوربيين يكونون ثروات خيالية تتضاعف باطراد مذهل بينما يأخذ البؤس والعوز بتلابيب الافريقيين تاركا لهم خيارا وحيداً هو بكل بساطة ليس سوى الموت جوعا ..

وهذه السياسه ، سياسة الإفقـار والتجويع . هى سياسة نمطية يلجـأ إليها المستعمر ، ذلك أنه ــ فى رأيه ــ مادامت الامعاء تعوى فلا يملك الرأس مقدرة ولاطاقة على التفكير بأبعد من المعدة الخاوية ، سياسة سلب الإمكانيات البشرية جميعا ومعها الحرية .

ولنأخذ عام ١٩٥٧ كمثال ــ فى ذلك العام بلغت جمله الأرباح فى الشركات الآتيـة حوالى ٤٩ ٪ من رؤوس أموال هذه الشركات وهى :

The Sociedade de agricultura de angola شروط أنجولا الزراعية

The Bamco De angola بنك أنجولا

The Compainhia dos Diamantes de angola شركة ماس أنجولا

The Agricola de الشركة الزراعية للمستعمرات (ساوتومى)

Cassequel (angola)
Sena Sugar States (Mosambi que)
The sociedade de agricoltura Colonial

فصافى ربحها لعام ١٩٥٧ يمكن أن يغطى تكاليف الخدمات العادية لهذا العام فى الرأس الاخضر وساوتومى وغينيا البرتغالية جميعا ، ويترك فائضا يبلغ ٥٠ مليون اسكويدوز « ٦٥٠ ألف جنيه استرلينى » ومثل هذا المبلغ يربو على مجموع نفقات التعليم فى أنجولا لذاك العام .

وتملك مجموعة الشركات الزراعية والتجارية « ماريوكونا » فى انجولا مجمعات وعمارات سكنية فى لشبونة عاصمة البرتغال ولها أيضا مؤسسات خيرية تقدر قيمتها بمئات الآلاف من الجنيهات ، أنشئت من أرباح هذه المؤسسات فى المستعمرات عن طريق تسخير الافريقيين .

ولانقاذ اقتصاد البرتغال المتصدع يجبر الافريقيون على شراء منتجات البرتغال وسلعها الهزيلة والعديمة الجودة والمباشرة بأسعار خيالية ويجبر الافريقون على بيع محاصيلهم الجيدة للسماسرة المستوطنين ، والتى تؤلف عصب الاقتصاد البرتغالى وتذهب كمواد خام رئيسية لصناعات البلاد الأوربية أيضا . ويصر المستوطنون على جعل الافريقيين يبيعون محاصيلهم بأسعار هزيلة تكاد تكون أسمية ، وطبيعى أن هؤلاء السماسرة يبيعونها بدورهم باضعاف هذه الأسعار .

وعلى رأس منتجات البرتغال التى تصدرها إلى المستعمرات الخمور والمنسوجات ويدفع الافريقيون ضرائب متعددة ، منها ضريبة السيادة وضريبة الأهالى ، وهذه الضرائب تؤلف العنصر الأساسى والجزء الأكبر فى ميزانية البرتغال للمستعمرات . . فعلى كل افريقى فوق الخامسة عشر أن يدفع هذه الضرائب التى غالبا ما تعادل أكثر من نصف دخله السنوى ، وغالباً ما ينتهى الافريقى بعد عمل عام فى الجزر أوفى جنوب افريقيا وكل مافى جيبه وثيقة تثبت أنه قد سدد جميع ديونه للدولة ، ولاشىء غير ذلك. إن البرتغال تهدف إلى تحويل هذه المستعمرات وخاصة انجولا وموزنبيق إلى عدد من المستعمرات المتشابهة لجنوب افريقيا على نحو مطابق حتى يسهل عليها استغلال ثرواتها وطاقاتها البشرية بصورة أكمل .

ولتحقيق هذا الهدف فهى تعنى عناية فائقة وتبذل أموالا طائلة على عمليات الهجرة الأوربية إلى المستعمرات الافريقيـة ، وتجعل ذلك عملها

الرئيسى ، فى انجولا وحدها تصرف سنويا حوالى ٥٠٠ مليون اسكوداز (ما يعادل ٦٫٥٠٠٫٠٠٠ من الجنيهات) لانشاء ٣٥٠ مزرعة فى مقاطعة دى سيلا التى تبلغ مساحتها وحدها حوالى ٤٠ ألف هكتار ، وهذه المبالغ هى محصول المجهود الافريقى من أعمال السخرة وتعادل هذه المبالغ المعروفة على خدمات الزراعة والغابات لعام ١٩٥٧ .

وتتكلف كل عائلة أوربية فى انجولا ما يربو على مليون اسكويدز ، وهذا المبلغ يعادل دخل أسرة افريقية يعمل كل أفرادها دون انقطاع لمدة ألف عام ! !

وتخلف البرتغال الاقتصادى ينعكس على الحياة فى المستعمرات ، ذلك أن البرتغال لم تكن أبداً قادرة ، ولن تكون قادرة على خلق أساس قوى لاقتصاد — متطور فى مستعمراته ، والبرتغال نفسها تفتقد المتطلبات الأولية لعناصر مثل هذا الاقتصاد فى داخلها. والمستعمرات الأول تخلفا — نسبيا — مثل انجولا والموزنبيق تواجه كوارث اقتصادية لاتحتمل البرتغال تفاديها .

فى مجلة العالم الافريقى The African World فى عدد يناير ١٩٦٢ ، يعلق مراسل المجله على الزيارة التى قام بها سيرروى ويلنسكى للشبونة فى طريق عودته إلى رودسيا ، قائلا . هناك شخصيات عالمية قليلة جداً تلقى مثل ذلك الترحيب القلبى الحار الذى يلقاه سير روى ويلنسكى فى البرتغال ، ولقد أجرى السير روى ولنسكى محادثات ، « بناءة » فى جو من الصداقة والود الذى يحوط دائما لقاءاته مع الدكتور انطونيو أوليفيرا سالازار .

ويستطرد قائلا ، لقد كانت الزيارة خاصة وعلى سبيل المجاملة ، غير أن السير روى ويلنسكى لم يتجاهل الصحفيين المتسائلين بالرغم من محاولته تفادى تصريحات بشأن هذه الزيارة . وخلال مقابلته لهم فى مأدبة العشاء

التى أقيمت ترحيباً له فى مقر قنصل روديسيا ونياسلاند بالسفارة البريطانية فى لشبونة ، صرح بأن مسائل إقتصادية ومتعلقة بالمواصـــلات قد تمت مناقشتها مع سلطات البرتغال . وأن العلاقات الاقتصادية بين البلدين — فى أفريقيا — كانت على أساس هذه المفاوضات وأن العلاقات بين البلدين كانت دائمة طيبة وتدعو للتفاؤل ، وأضاف أن مشروع مد أنابيب البترول عبر الموزنبيق تجرى على أحسن مايرام « وليس لدينا مانقلق بشأنه ،وأن مسائل الحلف الدفاعى لاضرورة لها . ذلك أن العلاقة الطيبة الحاضرة كافية وتبشر بكافة الضمانات فى مجال التهاون فى هذا الشأن .

وقد ظهرت صورة فوتوغرافية للسيدين سالازار وويلنسكى وعلى وجهيهما ابتسامات عريضة مما يؤكد « تمام التفاهم » ، ولعل هذا التفاهم مفهوم تماما ولا يحتاج لشرح ، فأسبابه واضحة وتفوح بالفضيحة ، وربما كان الأصح أن يقال « التواطؤ » .

وتقول نفس المجلة بعدد مارس ١٩٦٢ : سيتوفر خلال عام ١٩٦٢ ، ٥٥٠ ألفاً من الأطنان من منتوج الآبار المحلية من البترول لمعامل تكرير زيوت لواندا ، وتبشر النتائج الحالية بأن منتوج هذه الآبار سيفيض عن طاقة المعامل المحلية فى العام المقبل بحوالى ١٦٫٦٠٠ ألف طن وستصدر هذه الكمية للخارج إبتداء من منتصف العام الحالى .

وتدل الإحصائيات الأخيرة على أن محصول بترول آبار انجولا يزداد باضطراد وتقدم الآبار السبعة المستغلة حوالى ١٫٢٠٠ متر مكعب يومياً . وعند افتتاح آبار جديدة سيتضاعف هذا المحصول ، وتقدر قيمة هذه الزيادة وحدها بحوالى ٤ ملايين من الجنيهات لهذا العام .

وتقول الإحصاءات أيضاً أن صادرات أنجولا فى ٦١/٦٢ من السلع قد بلغ حوالى ١٫٠١٧٫٢٥٦ طنا ، وأن قيمة هذه السلع تقدر بحوالى

٤٥ مليونا من الجنيهات ، وقد كان البن على رأس هذه الصادرات يليه الماس وتقدر قيمة صادرات أنجولا منه بحوالى ١٠ ملايين من الجنيهات (وبعض مناجم أنجولا ما زالت بعد تحت التنقيب).

ولا داعى لترديد القول بأن هذة الثروات جميعها تذهب صافية بلا نقصان الى خزائن الاحتكارات الأوربية . وترتفع نسبة الأرباح الى حوالى ٥٥٪ من رأس المال ، وهذ المنسوب الخيالى نتيجة لكون عملية الانتاج زهيدة التكاليف وتعتمد على المواد الخام المرصودة للاستغلال الأوربى وتكاليف العمل الزهيدة الى حد المجانية اعتمادا على « الامكانيات المحلية » المسخرة . وبديهى أن تقابل هذه الصور اللامعة من الثراء والوفرة ، صورة الأهالى المنهكين بالعمل المستنزفين لأجل هذه الثروات التى تقوم أساسا على مجهودهم وحده . ولا يستحدث البرتغال كثيرا من وسائل التكنيك الالى الجديد فى التعدين أو الزراعة أو أى من عمليات الانتاج ويكتفى بالمجهود البشرى الافريقى Manual Labour الزهيد الى حد المجانيه) .

وهكذا تستقر كل قطرة من دم وعرق العنصر البشرى ، تستحلب كل ذره من الأرض، وتستنزف جميع الموارد الطبيعية خلال عمليات الاستغلال الاجرامية التى يقوم بها أوربيو أفريقيا البرتغالية .

ولتكملة الصورة نتابع مقالة فى نفس العدد من مجلة العالم الافريقى بعنوان «الاقطاعات الزراعية فى أنجولا» .

أنشئت اقطاعيات « Colonatos » جديدة فى شمال أنجولا فى ضواحى مدينة جانيرو Janero لتستوعب ألف عائلة أوربية من المستوطنين النازحين من (البرتغال الأوربية) وهذا تعبير يعنى البرتغال ، ذلك أن

جميع البرتغال وحدودها لما وراء البحار صارت مؤخراً يشار اليهـا بجمهورية البرتغال فيما يسمى افريقيا البرتغالية - أى المستعمرات - بالبرتغال الافريقية .

وتزرع هذه الاقطاعية البن وحبوب الزيت والكتان ، ولا ينسى المقال أن يذكر الاهالى بسخاء كبير اذ يقول أنه فى نفس الوقت يقوم العمل على انشاء أحياء الأهالى فى نفس المنطقة ، وذلك لاستيعاب المهاجرين العائدين من الكونغو أثر الاشتباكات الاخيرة . والفارين الذين احتموا فى الغابات .

والمقال يشير ، ببساطة متناهية أقرب الى الاستهانة الى حقيقة أحياء الاهالى وهى أماكن منفصلة عن احياء الاوروبيين ولا يشير الى تكاليف هذه المنشآت والتى يحرج السلطات ذكرها بالتأكيد .

وهو أيضا يشير الى هجرة وفرار هؤلاء الاهالى كما لو كان الامر طبيعيا ، ولا يثير تساؤلا ، وانه وارد حسب وضع الاشياء أن يفر الناس فى وجة البوليس وأن تكون هناك حملات تأديبية تدفع الناس الى الاحتماء بالغابات .

وربما وجد موظفو سالازار فى عودة هؤلاء الاهالى من جديد امكانية للدعاية والتدليل على رحابة صدر ، ونبل النظام وكرمه أيضا ، أو ربما وجدوا فى ذلك عاملا لتوكيد مدى حرية الاهالى وقد منحهم النظام حتى حرية الفرار من وجهه واللجوء الى الكونغو والى الغابات . وربما ذهب إلى توقع امتنان هؤلاء القوم وتمجيدهم له ، كأن تطالب الطريدة بالامتنان والعرفان للصياد الذى فشل فى اقتناصها .

ويقول المقال مضيفا اسهابا جديدا للغبن يدرس فيرادى سيلفا ،

مهندس الاقليم امكانيات جديدة لتوطيد أفواج اخرى من الاوروبيين فى هذه المنطقة . وقد رصدت ٩ ملايين من الجنيهات فى ميزانية أنجولا لهذا العام لمشاريع التوطين . كما رصدت حوالى ٤ ملايين من الجنيهات لبناء الطرق فى انجولا لهذا العام . ويوفر هذه الاعتمادات من ضرائب الجازولين والخمور وضرائب أخرى كضريبة الكوخ والسيارة وغيره . . !!!

وتعتمد حوالى عشرة أضعاف هذه المبالغ لتطوير المدن من مشاريع التوطين خلال السنتين القادمتين .

وبالاضافة الى هذه المشاريع . فان مشروع طريق مطار توتو Toto قد تم تنفيذه وفتح للملاحة الجوية . وقد كانت أول طائرة ترسو على أرض المطار الجديد طائرة حربية تحمل الجنرال ليبايو مونتييرو . قائد القوات المسلحة بأنجولا وضباطه .

وقد وقعت شركة الخطوط الجوية الافريقية البرتغالية . معاهدة مع شركة خطوط جنوب افريقيا تنص على تبادل استغلال الخطوط الجوية التى تجرى يوميا بين اتحاد جنوب افريقيا والبرتغال الافريقية . . وهذه الاستثمارات هى رؤوس أموال فردية تسندها السلطات وتشجعها .

ولقد صرحت السلطات مؤخرا بأن شبكة مواصلات سلكية ولاسلكية على أحدث طراز تقام اليوم فى الموزنبيق . وأن مشروع خط حديد سوازيلاند — الموزنبيق الذى يكلف ١٨ مليون جنيه متوقع افتتاحه مع نهاية هذا العام .

واذن فان مشاريع التعمير ما هى الا تسهيلات مجددة لعمليات استنزاف البلاد والأرض . فهى اما مشاريع استيطان الاوروبيين . واما

مشروعات تنفيذ شبكات هائلة للمواصلات تهدف أساسا الى ربط أجزاء الاقاليم الافريقية الى موانى التصدير أو تؤمن وسائل الانتقال السريع للوحدات العسكرية . وهـذه اجـراءات مستحدثة استدعتها الانتفاضات لشعوب مستعمرات البرتغال . ولقد استوجبت حالات الطوارىء المتكررة والتى أصبحت اليوم قائمة بصورة مستمرة ضرورة توفير وسائل الانتقال والاتصال بالخارج حيث تقع البلدان « الصديقة » والموالية للبرتغال . أو التى ترتبط معها بمعاهدات عسكرية ودفاعية .

واهتمام البرتغال بالطرق والمواصلات والملاحة الجوية راجع إلى أهمية هـذه التسهيلات بالنسبة لعملية ترحيل الحاصلات الزراعية والمعدنية التى أعطت البرتغال امتيازات استثمارها — مؤخرا ويهدف مبادلة البلدان الاوربية صاحبة المصالح الاستغلالية فى المستعمرات المنفعة (السلاح والتأييد الادبى والسياسى) . وبما أن أنجولا مثلا هى من أكبر الاقطار الافريقية . وتعتبر احدى اكبر أربع دول أفريقية منها السودان ؛ والكونغو ، والجزائر ، فان أقاليمها الداخلية الوفيرة المحاصيل تنأى عن موانى التصدير بسبب ترامى أطرافها واتساع رقعتها والأمر مشابه بالنسبة للموزنبيق أيضا . وكل اقليم من هـذه البلاد له محاصيله الهامة الوفيرة التى تجمع وتصدر للخارج .

واذن فان الميزانية المرصودة لهـذه المستعمرات تصرف أساسا على المواصلات وعلى عمليات التوطين .

الاستيطان ، والاستيلاء ، والاستغلال . . هذه الثلاث هى عناصر جريمة البرتغال فى افريقيا . وعوامل مأساة الافريقى تحت نظام سالازار .

الفصل الرابع

الحالة الاجتماعية

من البديهى أن تنعكس الحالة الاقتصادية على الأحوال الاجتماعية متخذة ملامحها مسبقا . . انهما متلازمتان وتؤديان بالصرورة إلى بعضهما البعض . فمن أجل الحصول على الربح ، وفى سبيل الرغبة المجنونة فى طلب الربح ، ولتوفير المواد الخام والأسواق ، تلجأ هذه الانظمة التى يعنى وجودها فى بلد ما التخلف الاقتصادى والفقر الشديد للأهالى وجميع مترادفات الفقر ، تلجأ هذه الانظمة إلى عملية تحطيم منظمة لجميع المؤسسات الحضارية والاجتماعية حتى تنسجم الصورة . ويتم مصادرة امكانيات الشعب جميعا لصالح الاحتكار الاوروبى والمؤسسات الاستغلالية .

ومن ثم فان الأوضاع الاجتماعية — إذا ماوضعت الحالة الاقتصادية فى الاعتبار — لايمكن أن تبدو مدهشة بالرغم مما فيها من صور فاجعة ، ويصعب تصديقها أو حتى تخيلها واقعة فى هذا الزمان الذى تقدم أبسط معطياته دلائل عدل متعاظم أبدا بفضل انتشار الوعى وقوة الرأى العام العالمى المنتصر لقضايا التحرير بإصرار وصمودهما الذى يشكل سمة عن سمات من هــذا العصر وروحه . . سوى أن البرتغال بسبب فرضها ستارا كثيفا من الصمت حول مستعمراتها طوال مئات السنين التى هى عمر الاستعمار البرتغالى الأسود فى أفريقيا ، قد نجحت فيما مضى فى عزل الشعب الأفريقى فى هذه المستعمرات ، وخنق جميع انتفاضاته بوحشية مروعة ومنع كل ما من شأنه فضح جروحها المتقيحة ، وكشف عريها الفاجع أمام

العالم بكل الوسائل .. إلا أنها غير مستطيعة ذلك بعد . ذلك أن يستحيل أن تظل أمور تقول بأنه في القرن العشرين مايزال نظام هو أسوأ من الرق بكثير سائد فوق هذه الأرض التي من أروع شعاراتها أن الانسان أثمن رأس مال . وأن تكن الحجة على دوام مثل هـــذ النظام هو أن الأفريقيين عاجزون عن الترقي للقطاع المتمدين وأن يكون هناك من يجرؤ بوقاحة عجيبة على التفريق بين الناس بسبب لون بشرتهم فيقسمهم إلى قطاع أبيض ممتاز وقطاع أسود دونه ، وأن يقبل هذا المفهوم على الاطلاق .

غير أن البرتغال بصفاقة مدهشة تسكت على الاحصاء القائل بأن خلال ٥٠٠ عام من حكمها للافريقيين لم يستطيع سوى ٣٠ر ٪ من السكان الترقي الى القطاع المتمدين ، وأن ٧ر٩٩٪ من هؤلاء السكان مازالو بعـــد غير متمدينين .. ومن ثم لايستحقون حمل لقب مواطن ، ولا حقوق لهم ، ولاحريات على الاطلاق سوى حرية الموت جوعا .

ان هذا النظام العجيب الذي يصنف الشعب إلى متمدينين ، وغير متمدينين Assimilatos يحمل في طياته — ضمنا — استباحة استغلال غير المتمدينين ومعاملتهم كالدواب من قبل البيض واباحة حياتهم ودمائهم جميعا ، فهم أقل حتى من الدواب .

وأنه لكي يحصل الأفريقي على لقب متحضر يجب أن يوفر الشروط الآتية ، وهي كما هو واضح لاتتوفر في البرتغاليين أنفسهم باعتبار أن نسبه التعليم مثلا في البرتغال هي أقل من ٥٠ ٪ .

على الأفريقي لكي يحصل على لقب متحضر ، ومن ثم لقب مواطن من من رعايا الوطن الأم — البرتغال :

١ — أن يثبت أنه على صلاحيات مادية معينة تفوق المستوى المعيش لأغلبية الرعايا البرتغاليين في البرتغال .

٢ ـ أن يعيش على « نحو أوروبى » ويتخلى عن عادته الافريقية ، وأن يعتنق الكاثوليكية .

٣ ـ أن يدفع الضرائب المستحقة عليه للدولة .

٤ ـ أن يكون قد أدى مدة الخدمة العسكرية « لم يكن التجنيد مباحا لغير الاوروبين فى الجيش البرتغالى قبل ١٩٥٤ .

٥ ـ أن يجيد اللغةالبرتغالية قراءة وكتابة أجادة تامة ـ الشيءالذى يجهله أكثر من ٥٠ ٪ من البرتغاليين .

وهذه الشروط تعجز أغلبية الشعب البرتغالى عن تحقيقها ، ومن ثم فانه حسب هذه الشروط للترقى فان ٥٠٪ من الشعب البرتغالى يمكن أن يعتبر غير متمدين ولا يحق له حمل لقب مواطن ، وممارسة حقوق هذا المواطن والتى يحصل عليها فقط بسبب لونه . أنها تفرقه عنصرية من نوع عجيب .

ان الافريقى غير المتمدين يعامل كمتاع منقول ، وهو دائما تحت رحمة الله وعواطف الإدارة الاستعمارية والمستوطنين المتقلبة والسادية .

ان حالته هذه ضرورية جدا بالنسبة لوقع الأشياء فى النظام وبقاؤه على الشكل الذى هو عليه . فهو يقدم مصدر لا ينضب من الطاقة البشرية المسخرة ـ بحد القانون والسيف ـ لقيام الاقتصاد البرتغالى وامكانيته للتصدير أيضاً .

وعن طريق تصنيف الأفريقى كغير متحضر يفتح الطريق واسعاً على مصراعيه أمام مشروعية التفرقة العنصرية ، ويؤلف تبرير الاستعمار البرتغالى لافريقيا .

وحتى الحصول على لقب متحضر الذى يكفل للافريقى نظريا حق الحصول على الجنسية البرتغاليه ، حتى ذلك لا يمنحه بالضرورة حقوقا مساوية للأوروبى .

وكثير من المتمدينين يجدون أنفسهم فى حالة من العزلة يتخبطون بين الكتل الجماهيرية الأفريقية وبين المستوطنين الذين يضطهدونهم مجددا ، علنا وفى الخفاء فهم غير مقبولين مسبقا ، وقد يسلط فى وجوههم التعصب العنصرى بصورة خانقة وأغلبهم واجدون أنفسهم فى وضع متشابه كذلك الذى يتواجد فيه أولئك المقحمين قانونا على القطاع غير المتمدين .

ان الأمر عبارة عن لعنة حقيقية . . مجرد لعنة حقيقية .

فأنت لاحقوق ولا قيمة لك مادمت غير متمدين ، وإذا ماتمدينت — وهذا لايكون إلا بمعجزة — فان ذلك يصير لعنة عليك . أن عنصرية البرتغال المركبة سرطان كبير . . وهى تعنى فى الحقيقة تفرقة كاملة تشمل العزلة الجغرافية أيضاً — بمعنى أن أحياء الأفريقين تبقى خارج الضواحى ، وبالاضافه لبعدها كأنما هى مصحات مجذومين ، وهى فى مساحتها ليست أكثر من زرائب يحشد فيها حيوانات حقيرة محظور عليها التجول بحرية . . هى عزلة كاملة فيما عدا الاحتكاك أثناء العمل الذى يؤلف العلاقة الوحيدة بين الاوربى والافريقى ، والتى يبقى الاوربى على الافريقى بسببها فقط ، هى لصالح الاوربى أساسا وفى المحل الأول .

وفيما عدا حالات نادرة جداً — كما هو الحال فى جنوب أفريقيا تماما — فان الصلات مقطوعة كلية بين الأسر الاوربية والأسر الأفريقية ، وحتى فى الحالات النادرة فان المدارس وبعض الأماكن العامة الخارجة عن نطاق الأسرة والبيئة العائلية هى أمكنة الاحتكاك الوحيد بين أطفال الأوربين والقليل جدا من أطفال الملونين (المولدين Moulatos) وأطفال المتمدينين أيضاً ، وهنا . . حتى هنا وفى هذه السن الصغيرة التى يجب أن تتوفر فيها البراءة ، غير أنه حتى بين الاطفال تغرس العقد النفسية الرديئة .

والسينما والمطاعم والبارات وأماكن اللهو والنوادى جميعها موقوفة للأوروبى ومحظورة على الإفريقى والملون والكلاب أيضـــاً . . وكما لا يدهش الزائر لجنوب أفريقيا عند رؤية لافتة تقول «الإفريقى والكلب لا يدخلان» على واجهة أى مكان عام فإن نفس الشىء يمكن أن يقال بالنسبة لكثير من المدن فى إفريقيا البرتغالية. غير أن البرتغاليين لا يسمحون للزوار بدخول مستعمراتهم ، فالهجرة والسياحة أمران غير مكفولين فى غالبية الأحيان . . والسبب واضح تماماً .

وفى أماكن أخرى حيث لا تتواجد مثل هذه اللافتات فإن الذى يتجاسر مع ذلك ويقتحم الحواجز اللونية (اللامرئية) والمحسوسة بصورة حادة ، فإنه يتعرض للمهانة والتحقير .

والتفرقة العنصرية لم تكن متواجدة بشكلها الحالى فى بدء عهـــود الاستعمار البرتغالى لإفريقيا ، غير أنها ولدت مع تزايد عدد المستوطنين الأوربيين النازحين للبلاد .

وليس صدفة أن يكون من بين ١١ مليونا من الافريقيين ٢٨ ألفـا من الملونين فقط . وقد بقى هذا الرقم مجمدا طوال سنوات طوال. أن جميع هؤلاء تقريباً هم مواليد غير شرعيين يتبرأ منهم آباؤهم ، وفى الحالات التى يحتفظ فيها الأب بطفله فإن الأم تبتعد تماما وترسل إلى قريتها وتبقى فيها ولا ترى طفلها أبدا وتتخذ التدابير غاية فى الصرامة للتفريق بين الطفل ومعرفة أمه ، وتصل هذه التـــدابير حد إرسال الابن إلى لشبونة ، إذا ما كشفت محاولة من جانب الأم الافريقية لرؤية ابنها. وفى حالات نادرة يجرؤ فيها زوجان (إفريقى وأوروبية مثلا) على ارتياد أحد الأماكن العامة فإن ذلك يعرضها لأقسى أنواع التحقير والمطاردة ، وكثيرا ما يكون فى ذلك مخاطرة كبيرة . وفى الريف يعيش الافريقى تحت وطأة ظروف

بائسة إلى حد مؤلم حتى ليبدو الأمر جميعاً « أن لا خلاص » ، وفى المدن أيضاً يحصر الافريقيون فى أحياء ضيقة عديمة التهوية هى أكثر الضواحى بعدا عن المدينة ، وقليل هى المنازل التى يمكن أن يطلق عليها هذا الاسم حسب أكثر المقاييس تواضعاً .

إن هذه التفاصيل جميعاً هى ملامح صورة مشابهة للوضع فى جنوب أفريقيا التى يفيد النظام فى إفريقيا البرتغالية منها كتجربة هى — فى رأيه — ملائمة تماماً لوضع الأشياء حسب ما يود وما يرغب .

ومن الصعب جداً حتى على هذا المتمدين الافريقى الحصول على مسكن معقول نسبياً ، وهذا المتمدين عينه ، ولنفس الأسباب قلما يكون على صلاحيات ما بالرغم من أنه حتمياً مؤهل وغالباً ما يكون خريجاً فى جامعة لشبونة أو غيرها .

وهو مع ذلك قليل الحظ فى إيجاد مهنة ما فى القطاع العام ما دامت الوظائف الحكومية موقوفة على الأوربيين ، وحتى إذا حصل على إحدى الوظائف التى لا أهمية لها فإن أجره فى هذه الحالة لا يساوى أجر أوربى فى نفس الوظيفة (هذه الفئة من الافريقيين موضوع الدعاية البرتغالية التى تنشرها لشبونة على العالم متشدقة بعدالة حكومتها فى المستعمرات بالفرص المتساوية للأهالى والتسهيلات المبذولة لهم من قبل السلطات) ، بينما أن أقل الأوربيين شأنا يقطن « فيلا » شاسعة من تلك القصور الاقطاعية التقليدية التى تضاهى أفخم القصور فى البرتغال نفسها .

ذلك فى حين يفرض نظام البطاقات على الأهالى ويحرمون حرية التجول فى بعض قطاعات المدينة ويخضعون لتفتيش صباحى يومى ، وليس من الحكمة فقد هذه البطاقة وإلا فليس هناك ما يثبت وجودك قانونيا واجتماعيا .

وهناك اعتقاد شائع هو أن خدم المنازل من الافريقيين ليس لهم فرص وامتيازات فالخادم المخلص ولا شك يخلق لنفسه أهمية أو ضرورة بالنسبة لسيده ، ومن ثم فإن مخدومه لابد أن يحرص عليه بعض الحرص بالاضافة إلى أن الغرف الخلفية فى إحدى هذه الفيلات خير من الكوخ الافريقى بالتأكيد ، ولذلك يسارع بعض الافريقيين لاقتناص فرص العمل فى بيوت البيض قياسا على الاعتقاد بأن « كلب الملوك ملك الكلاب » . غير أن الوضع يجرى هنا على النحو التالى :

على الخادم حمل بطاقة إلى كل مكان فهو عرضة للتفتيش اليومى ، وهذه البطاقة تجدد ويدفع عنها ضريبة خاصة قد تصل إلى ثلاثة أرباع أجر الصبي المسكين غير أن رب العمل إذا كان راضيا عن الخادم فقد يساهم فى توفير هذه المبالغ التى يسددها مباشرة عن خادمه للسلطات ، وإذا ما حدث ولم تتواجد هذه البطاقة مع الخادم فى مرة من المرات فإن المسكين يشحن دون أى مناقشة — بعد حلق شعر رأسه إلى الجزر فورا وقد لا يعثر عليه بعد ذلك أبدا ، وذلك قبل إخطار مخدومه الذى قد يسارع إلى استرجاعه اذا كان ذلك ممكنا .

والقول بأن سكان المستعمرات البرتغالية هم خليط من الافريقيين والأوربيين — تبعا لقانون الاستيعاب — محض خيـــال . والواقع والاحصاءات الرسمية التى تنشر عن ادارة المستعمرات الأفريقية تكذب هذه الادعاءات ، فشـــلا أنجولا ، من بين مجموع السكان البالغ عددهم ٤,٥٠٠٠٠٠ نسمة لا يوجد سوى ٢٢,٠٠٠ شخصا ملونا ، و٨٠,٠٠٠ أوربيا والباقى من الافريقيين سكان البلاد الأصليين . والقوانين البرتغالية صريحة وواضحة فى التفرقة بين الأنواع المختلفة من الشعوب الأصلية للمستعمرات فالقانون والعرف يفرقان بين «المستوعب» والإصلى والاوربى ، والنتيجة

التي لا مفر منها هي أنه لا توجد علاقة سلالة بين البرتغاليين والافريقيين إلا نادرا وبشكل غير مشروع .

وإذن فانه ليس واردا أن يكون « كلب الملوك ملك الكلاب » . وهذه البطاقة أيضا هي بالنسبة للمتمدينين الوثيقة الوحيده لاثبات آدميته.

أما غير المتمدينين فليسوا بشيء على الاطلاق ما داموا لا يحملون بطاقات وغير مسموح لهم بذلك ، والذى يموت منهم أو يفقد فانه لا يؤلف أي إزعاج للسلطات ، مجرد نفر ، وهو يموت كما ينفق الحيوان ويستبدل بغيره عندئذ بأسرع ما يمكن،وكل مايهم من أمره أن يظل صالحا للاستعمال.

نظام السخرة:

يعمل عشرون ألفا من العمال ، من أنجولا وموزمبيق وجزر الرأس الأخضر ، في مزارع المستوطنين البيض في ساوتومى في قلب المنطقة الاستوائية لمدة ١٢ ساعة يوميا .

ونظام العمل الاجبارى موجود فى كل من غينيا وأنجولا وموزمبيق غير أنه في الأخيرتين مسموح للشركات الخاصة استغلال العمال بالسخرة دون وساطة في امكانها جمعهم مباشرة أو عن طريق سماسرة العمال . وفى أنجولا يؤجر سنويا حوالى ٤/١ مليون من هؤلاء لأعمال الزراعة والمناجم والتعمير الخاصة بواسطة الدولة نفسها .

ومن موزمبيق يصدر سنويا طاقات نصف مليون من العمال لصالح العمل الاجبارى فى الاستثمارات الأوروبية ،ويعود مائة ألف منهم للعمل في مناجم جنوب أفريقيا ورروديسيا .

وتجارة العمل الاجبارى وتصدير الأيدى العاملة من العناصر الأساسية المربحه جدا ومن المصادر الهامة للدخل من العملة الأجنبية في البرتغال .

يقول هنريك جالفاو (١) ـ أحد الاستعماريين السابقين — فى تقرير قدمه لسالازار عن الحالة فى المتعمرات ، يقول ، أن الموتى وحدهم هم المعفيون من العمل الإجبارى ، أن الحالة الحاضرة هى أسوأ من الرق الحقيق ، وهناك مخدومون ترتفع نسبة الوفاة بين عمالهم إلى ٣٠ ٪ ومع ذلك فلم يواجهوا مطلقا صعوبات فى الحصول على أعداد جديدة من العمال » .

أن كل أفريقى فوق الخامسة عشر يعتبر صالحا للاستغلال . شركة أنجولا الماس تسخر وحدها ٢٠ الف عامل سنوياً ـ هذا الشكل الجديد الرق — قد صدع ملايين العائلات الريفية وقضى على كيانها تماما .

وتجنى السلطة سنويا من وراء تجارة تصدير الأيدى العامله مبالغ طائلة وتدفع أجور العمال التى لا تكاد تعادل ٢٥ ٪ من دخل الحكومة ، وتدفع هذه الأجور بعد عودة العامل إلى موطنه بالعملة المحلية كيما تتفادى الدولة مجموع أجور هؤلاء العمال بالعملة الصعبة .

والأجور تدفع بعد خصم جميع الضرائب والمستحقات وبعد أن يخصم أجر ١٥ يوماً إضافة لصالح الدولة هى عبارة عن أحدى هذه الضرائب ، كضريبة السيادة البرتغالية مثلا (Sovereignity tax) ، وكثيرا مايخرج العامل بعد هذه العملية وكل مافى جيبه وثيقة تثبت أنه سدد جميع الديون المستحقة عليه للدولة !

ونظريا يستحق كل أفريقى الرعاية الصحية غير أن هذا المطلب يعتبر صوريا أقرب إلى الخرافة .

وهو يستحق جعلا معينا من الغذاء ، غير أن الإخصائيين البرتغاليين

---

(١) هنريك جالفاو — من زعماء المعارضة الليبرالية فى البرتغال ، ويعيش الآن لاجئا فى أمريكا اللاتينية بعد حادث استيلائه مع بعض أعوانه على الباخرة سانتا ماريا .

توصلوا إلى معادلة تقول أن الوجبات الأهلية المفضلة لا تفتقر إلى العناصر الغذائية الرئيسية ، ومن ثم فإنه لا حاجة لأن تثار ضجه حول الاحتياجات الغذائية اللازمة لهذه المخلوقات .

وعليه فان المتوفر دائما هو الحد الأدنى من القيمة الغذائية التى تحفظ الكائن الأفريقى حيا قادرا على العمل فقط بحيث لا يفكر الأفريقى الا فى الوجبة التالية .

ويفرض نظام العمل الإجبارى حتى على الأطفال والصبيان ، وبالإضافه إلى أعمال الزراعة والتعدين فإن الافريقيين اللائقين يجبرون على الأعمال الشاقة وخدمة المنازل .

وإحصائيات الأجور تقول أنه حتى المتمدنين يعانون اضطهادا قاسيا ، فمثلا لا يتساوى أجر الأوروبى عن العمل المتساوى مع أجر الأفريقى المتمدن .

أما عن تكافؤ الفرص ، وإن الحقائق تقول بأن جميع الوظائف حتى أبسطها شأنا كالسعاة ، وخدم المطاعم ، والباعة فى المحلات ومخازن السلع حتى هذه موقوفة على الأوروبين .

وتواجه مشكلة البطالة الأفريقيين يومياً بإلحاح . وفى أنجـولا وموزونبيق غير مسموح للافريقى أن يمتهن سواقة التاكسى أو البيع فى فى مخازن السلع والمحلات .

والعامل الأفريقى مجرد من كل حق للدفاع عن نفسه وعن حقوقه ، فغير مسموح لغير المتمدينين بحق تكوين منظمات شعبية تحمى حقوقهم أو تعبر عنهم ، وحتى المتمدنين لم يسمح لهم بأن يمثلوا داخل اتحادات العمل السالازارية الفاشيه .

فى المزارع والمناجم يترك مصائر العمال الأفريقيين لأهواء وعواطف مخدوميهم وليس ثمة مايحمى الافريقى أويرعى حقوقه ، وهو معرض باستمرار لغدر غاشم نتيجة نوايا الأوروبى التسلطية نحوه، والذى يملك حقا مطلقا للتصرف فيه بما فى ذلك انتزاع روحه على سبيل العقاب والتخويف لغيره من الأفريقيين المسالمين .

العنايه الصحيه :

خصص لأفريقيا البرتغالية التى بلغ مجموع مساحتها ٣ مليون كيلو متر مربع ومجموع سكانها ١١ مليونا ، ٣٨٠ طبيباً فقط (حيث وسائل المواصلات من أردأ الوسائل فى أفريقيا جميعها) .

فى الرأس الأخضر التى تضم نسبيا أكبر عدد من الأطباء يوجد طبيب لكل عشرة آلاف نسمة .

ولكل ٣٠٠٠ ألف نسمة مستشفى ، وطبيب لكل ٢٠ ألف ، وممرضة واحدة ، و٣٠ سرير لكل ١٠ آلاف ، فى أنجولا التى تعتبر على هذا القياس أحسن حالا من كل من غينيا والموزنبيق .

وتدل الإحصاءات على أن نسبة الوفيات فى بعض الأقاليم بين الأطفال تبلغ ٦٠ ٪ ، وفى أقاليم أخرى تبلغ ٨٠ ٪ ، وفى مقابل خانة سبب الوفاة يوجد هذا السبب « أوبئة غريبة — أمراض مجهولة » . ولا تصيب هذه الأمراض الغريبة غير الافريقيين وقد ذهبت فى عام ١٩٥٦ بـ ٨٤ ٪ من الأطفال بسبب سوء الحالة الصحية وسوء التغذية ، وبسبب الجفاف والمجاعة ، فقد لاقى ما بين عام ١٩٤٠ — ١٩٥٠ ، ٤٠ ألف شخص حتفهم فى جزر الرأس الاخضر .

هذا وينبغى أن ندخل فى الاعتبار أن هذه الخدمات الطبية موجهة أساساً للبيض . وتحول النظم القائمة عملياً من استفادة الافريقيين من هذه المؤسسات الصحية ، ومن هنا فان هذه الإحصائية ليست لها دلالة واقعية ، لأنها تنسحب على عدد السكان وفيهم الأوروبيون .

الفصل الخامس

الغزو الفكرى

(١) الدعاية

إذا سألت أوربيا ــ حتى إذا كان هذا الأوربى المسانى ــ عن رأيه فى احتلال برلين مثلا ــ وأنا أقصد هذا العادى ــ فانك مؤكداً سامعه يقول : ــ إنه يناسبنا تماما . فهو يحمينا من الخطر الشيوعى ..

أما إذا اتخذت ملامحك تعبيراً مدهوشاً فانه غالبا ما يستطرد . ــ اننا لسنا مثلكم بخصوص هذه المسألة . أنتم قوم شديد الحساسية والكبرياء . (!!)

ان الجزء الأول من هذه الإجابة وجهة النظر التقليدية . تسمع عند طرح مثل هذا السؤال .. إجابة جاهزة مبذولة لاستعمال الجميع ابتداء برجل الشارع وانتهاء بالمفكر .

إن وسائل الاعلام المنتشرة ذات الصلاحيات الواسعة والإمكانيات الهائلة غير معنية سوى بتأهيل الفرد الأوربى لقبول دور نمطى بحيث ينتهى إلى أن يكون أداة طيعة فى يد النظام . أداة فى طواعيه الدميه ــ فيما عدى انطفاضات متفرقة يقودها مواطنون عالميون واعون انقياء يملكون الشجاعة والوعى الكافيين للوقوف أمام الأفك والزيف أمثال « سارتر » وأمثال « راسل » « وازبورن » وغيرهم ممن لا يفلتون من بطش

هذا النظام ونفوذه .

فالمصنع مثلا كوحدة مصغرة — عبارة عن مدينه كاملة — أقرب إلى الدويلة . العامل داخلها مكيفة حياته ومربوطة بصـــورة ماهرة بعجلة الانتاج . . بالربح . وبالاله . رباطاً لا فـكاك منه . الرباط قد يكون مزيناً جميلا يبـدو من الخارج لامعا براقا كالجنـة . مستعمرات سكنية مدهشـة مكونة من منازل مؤثثة على طراز حديث . المدارس والنوادى الليلية والسوق . الطرق والمعـارض ودور السينما والمسارح . محطـات الإذاعة المحليـة والتليفزيون (على مستوى الاقليم أحيانا . جميع المرافق ملـكا للمصنع (مثلا : مصانع كروب) (١) .

مصانع الحديد والصلب فى وستفاليا . مصانع فورد أوستاندرد أويل Standard Oil هى عبارة عن حكومات داخل الحـكومة الفدرالية . بل هى حقيقة الحـكومة الفدرالية (من خـلال السيناتورات داخل الكونجرس). تملك كل ما يقع داخلها . كل ما يقع فى حدود أراضيها وهذه الأراضى يمكن أن تنتظم خطوط السكة الحديد والبواخر والخطوط الجوية والخدمات الأخرى بما فى ذلك الصحافة طبعا . وإذن فان العامل يربى على مهل وبالتدريج ليصبح طيعاً كل الطواعيـة يستحيل نزعه من البيئة التى تخلقها له مؤسسات مجعولة لخدمة نظام بعينه . هذه الوضعية التى تهيئه لها

---

(١) بلغت قيمة أعمال كروب لعام ١٩٦٣ حوالى ٧ ملايين من الجنيهات وحددت قيمة الصادرات منها بحوالى ٣ ملايين أى بنسبة ٤٥ ٪ وباعتبار كون رأس المال الألمانى متخصص — فى قطاع كبير منه — فى انتاج الآلات والمعدات فإن أفريقيا بصلاحياتها واهتماماتها الجديدة تؤلف السوق النموذجى لبضاعة ألمانيا الاستراتيجية .

وسائل الدعاية والأعلام تتأكد وتتعمق من خلال سياسة المصنع (من نظام الشراء بالتقسيط الذى يشجعه المصنع ويكافىء المنتفعين به .. ضمانا لديمومة وثبات توازن الثلاثي الجهنمي العرض. الطلب. الربح .العرض) والطلب المحققان للربح . وتنشيطا لتداول العملة . نظام تمليك العمال لمساكنهم بعقود طويلة الأجل وغيرها من المثبطات التى تأتى على رأسها شروط الخدمة التى تعقد — أن لم تحرم فعلا — الانتقال من مصنع إلى مصنع . استنادا على اتفاقية داخلية بين الكارتيلات Cartel الخ) .

وطبيعى أن الأبواق ذات الأصوات العالية والأساليب السرطانية تتجمع فى ابقاء الفرد -- العامل أو المتعطل (ذلك أنه إذا كان العامل الأمريكى يعيش فى رخاء كما تقول الأحصاء فإن الجانب الآخر للصورة المشرقة التى يرسمها المصنع وصلاحياته ومبزولاتة وإغراءاته — الجانب الآخر للصورة يشير إلى أن نسبة البطالة لم تكن مثلها حتى أبان أزمة الثلاثينيات الطاحنة — على أن الذى يعنينا فورا هو دور الدعاية الخطير وتطوره من حيث فن الإعلان الدى أصبح علما قائما بذاته ، فإذا تعمقنا قليلا هذه الحقيقة وجدنا أن هذه (الظاهرة) من أعراض الرأسمالية ومعالمها التى لاتخفى . وأن دراسة سيكاوجية الكتل الجماهيرية بقصد تجارى يعنى بالضرورة تغـذية رافد من أخطر روافد التربية السياسية للجماهير مادام الهدف الأول والأخير ... الهدف النهائى للنظام الرأسمالى هو (الربح) الربح الذى يؤلف أيضاً إحدى سرطانات هذا النظام المهلكة والامركما نرى لايعدو أن يكون حلقة مفرغة خانقة .

فحرب الدعاية وحرب الإعلان (الحرب السيكولوجية) والحرب الباردة والحرب التجارية والحرب نفسها هى جميعا وجوه متعددة لاستراتيجية الربح ... فالنفوذ متاح تزدهر فيه إمكانيات الربح — ذلك إن إتساع رقعة « النفوذ » — كل أشكال النفوذ — تعنى مساحات أوفر

للتنفس — تعني نشوء فرص جديدة للاستغلال والإحتكار . . فالقوة الإقتصادية تفرض القوة العسكرية والعكس صحيح طبعاً — فيما يعنى الإثنان بالضرورة والنتيجة القوة السياسية وهذه جميعاً تعبير وتوكيد مجدد لهدف واحد — الربح . الربح الطالب بالحاح أبدا للأسواق والمواد الخام ... أى التوسع .. وهذا لا يتأتى سوى بالغزو بكل صوره وبجميعها إن أمكن . وكلما أمكن

أقول أنه من الطبيعى أن تجعل أبواق بهذا النوع . وأساليب بهذه المهارة الفرد يرضى هذه الوضيعة ولا يتصور بديلا لها إذ أنه فى الحقيقة يجهل كل شيء خارج نطاق نفوذ المصنع فى الوقت الذى تلجأ فيه ذات الوسائل أيضاً إلى المغالطة والتضليل بصدد القضايا التى تطالب بموقف شعبى يمكن أن يهدد مصالح رأس المال والنظام القائم .

وما دام المصنع يؤلف ضلعاً أساسياً فى هيكل النظام فهو يخدم بالضرورة والنتيجة الحتمية هذا النظام ويؤكده كليا ونهائيا . . إذ يجعل من الفرد (عدوا تقليديا) لكل ما من شأنه تهديد هذا النظام ودمغه بأختام وكليشيهات رنانة ومشوهة بأحكام مطلقة سطحية توضع فى الأفواه فتردد كما يردد الببغاء جملا محفوظة لا تعنى كثيرا (كالمبادىء الهدامة) ومن (ليس معى فهو عدوى) وغيرها مما يشبه (مكارثية أمريكا) و (كالشيوعية) التى يلوح بها الحزب الحاكم (الديمقراطى المسيحى) فى ألمانيا كما يلوح فرفورد بحركة (الماوماو) فى جنوب أفريقيا . .

طبيعى أن تفرض الأبواق الضاربة بالحاح على طبل الأذن واللوحات الملونة من النيون والفسفور المحدقة بوقاحة والتى تقتحمك اقتحاما . . وصور ب . ب . و م . م . وما لا أدرى من المخلوقات الملفوفة فى ورق السلوفان التى تغذى أفكار بعينها وقد جعل منها مثلا عليا ونماذج

..وغيرها من القضايا الانصرافية طبيعي أن تفرض وجودها على أذهان الشعب فلا يفلت من فخاخها أحد بسهولة .

لقد جهز وأعد كل شيء لكي تكون المعلومات المناسبة للسن المناسبة في متناول اليد المناسبة في الوقت المناسب .. فبينما يتولى المصنع وأجهزته أمر الذين داخله تتولى المؤسسات الاخرى أمر الذين خارجه وهـذه المؤسسات ذات علاقة وثيقة برؤوس الاموال فلا يمكن أن تتنافر ماتذيعه وتنشره مع غيرها فهي منظمات اجتماعية أو خيرية أو تعليمية قامت تحت وصاية وبمبادرة أصحاب رؤوس الاموال .. قامت بهبات رصدها هؤلاء لصالح نشاطات اجتماعية مختلفة (تتوازى أهدافها — وقد رسمت أصلا وخطت مسبقاً — بأهداف رأس المـال النهائية) .. وهذه الهبات تخدم غرض ذى حدين فهي تشكل تحايلا (يسمح به القانون الامريكي والألمـاني أيضاً وربما كان للدول الاستعمارية الاخرى وسائلها فى ذلك) على نظام الضرائب التصاعدية الذى يعفى الهبات والإعانات الممنوحة لاعمال خيرية وتعليمية وغيرها من الضرائب فى الوقت الذى تجعل من أصحاب رؤوس الاموال (المحسنين) أوصياء ومـوجهين للتيارات الفكرية والمواضعات الاجتماعية (والسياسية ضمنا) كمؤسسة روكفلر مثلا وغيرها من المحسنين للعلم الذين ينشئون الجامعات التى تنظم آلاف بل ملايين الشباب .. وتحت وصايه وتشجيع مجالس إدارات مغرضين تنشىء وتغذى نقابات عمالية وطلابية ومنظمات للفتوة تنشر أنماط من النشاط الجانبية التى تستنزف فائض طاقات الشباب كالمهرجانات الموسيمية والحفلات تستغرق أسابيع كاملة يغمض البوليس عينه عن المخالفات والحوادث الـتى تقع خلالها . مهرجانات يمارس الشباب خلالها أنواع عنيفة من النشاطات البدنية والانفعالية .. أنواعا من المساخر الشديدة العنف .

ومن أشهر هذه النشاطات نوادى الاخوة Fraternity & Sorerity وهى منظمات للشباب ذات نفوذ هائل تنتظم عدة صلاحيات وتسهيلات وتتوفر للعضو امتيازات متعددة فى طول الولايات المتحدة وعرضها فى المطاعم والبارات والنوادى الليلية والقطارات والمسارح والخ . وتضم هذه النوادى ملايين الشباب من الجنسين . وطبيعى أن هذه النوادى تعزل تماما الذين خارجها ولا يتورع أعضاؤها — على سبيل إثبات ولائهم المتهوس للنادى عن اضطهاد الآخرين ،وأحيانا يصل نفوذ هذه النوادى حداً يتحكم فى الرأى العام الولاية وبجريات أمورها إذا ما انطلق جماعة منها فى إحدى اندفاعاتهم العمياء .

واختيار العضو يتم فى سرية تامة ويشتمل على مجموعة من «الامتحانات» والمطالب المتطرفة إذ تقوم هيئة الممتحنين بإجراء اختبارات لمـــدى « ولاء وطاعة » العضو الجديد « للأوامر » المجنونة والسخيفة والتى لا تعنى شيئاً . . كان يطلب منه أن يتجول داخل مدرجات الجامعة حاملا دجاجة مذبوحة أو أن يطلبون منه القفز من ارتفاع خطر . ومجموعة من « الامتحانات » إثباتاً لهذا الولاء وتلك الطاعة التى يمكن أن تؤدى بالعضو الجديد إلى حتفه وتقع كمية من الحوادث أثناء إجراء هـذه الامتحانات الخطرة . . وغير مسموح — طبعا — للملونين بعضوية هـذه النوادى ويتضح المغزى العميق وراء هذه الحركة التى يؤلف شعارها « الولاء والطاعة العمياء » مغزى أشد خطورة وأبعد عمقا . . تحركات قصد منها أساسا صرف اهتمامات الشباب وتفكيرهم إلى هموم وأمور تافهة بعيدة عن هموم العالم وقضاياه الجادة .

وتملك هذه النوادى عدد لا يستهان به من المبانى والمنشآت والتسهيلات وتقدر قيمتها بمئات الملايين من الدولارات (غير الخاضعة للضرائب طبعـا) .

وإذا أضفنا حقيقة أخيرة والتي تقول بأن حياة الليل — في هوليود وكهوف باريس وملاهي برودواي وكتب الأدب والفن الرخيصة وقصص البطولات الزائفة التي تغذى مفاهيم ومقاييس ومشاعر بعينها تخلق وتعمق نماذج رخوه مائعة أمثال (الفيس برسلي) و (أودى مورفى) وغيرهم ممن يجسمون أخلاقيات «الكاوبوي»؟، أقول أن حياة الليل قد ساهمت في أن تجعل منه — من الفرد الأوربي — أو الأمريكي — جاهلا غافلا مسطحا فارغا دون أن يدرى وصد رغبته الحقيقية لو أنه وجد مساحة ووقتا كافيا لأن يتحرك ويتنفس ويرى ويمعن النظر بحرية.

وهنالا أيضا أمثال منظمة «حرية الثقافة» التي ترفع شعارات تقدمية تخفي ورائها أهداف ماكرة — وقد أنشئت — في البدء — وإمعانا في التضليل — بمبادرة بعض من الشخصيات ذات التاريخ النضالي الطويل. وأغلبهم من أعضاء الحزب الشيوعي الأمريكي والذين يملكون خلفية ثقافية يمكن أن تفلسف بمصطلحات تقدمية وتقنع وتعطى جذوراً يمكن أن تؤخذ على أنها علمية لدعوات غاية في الرجعية. أعضاء سابقين في منظمات تقدمية وفي الأحزاب الشيوعية الأوربية. وشعار إنساني تقدمي للغاية «محاربة الفاشية في العالم» (١) شعار يبدو جيدا وطيبا وليس أبدع منه ولكن في النهاية يهدف إلى مناهضة ما يسمى «بالاضطهاد الفكري داخل البلاد الاشتراكية» و «وخلف الستار الحديدى والستار الخيرزاني» والخ .. ومن هنا يتضح أن هذا الشعار ليس سوى مكارثي موصوم ولا يقل عنه هزالا وهشاشة شعار «من ليس معي فهو عدوي» الذي يشهر في وجه بلد محايد كأندونيسيا مثلا من خلال تحركات مثل هذه المنظمة التي تناقض فيما تناهض «اضطهادا فكريا مزعوما» في داخل البلاد المحايدة والبلاد المعادية لإسرائيل (مثلا) هذه المنظمات التي تكشف أن لها علاقة بالصهيونية العالمية (وهكذا فإن ذلك وحده دليل إدانة على كونها قائمة بأهداف وأغراض ومفاهيم استعمارية مزينة من الخارج في حذق..

ومثال جديد يمكن أن يؤخذ من المـانيا حيث يمكن أن يجـرى الأمر هكذا ..

إذا رأت المانيا ــ مثلا ــ أن احتمالات تنفس وانتعاش الاقتصاد الألمانى تتوفر فى الأسواق الأفريقية . فإن جمعيات «صداقة المانية افريقية» وأوبرا للموسيقى الأفريقية ومعاهد للعلوم والتـاريخ والفن الأفريقى سرعان ماتقام ويعقب ذلك موجة مجنونة ينتشر خلالها الولع بكل ماهـو افريقى فى الديكور وأسلوب تمازج الألوان والنقوش وأزياء النساء والحلى والخ .. وتمتلىء الصحف بتحليلات وهمية عن حوادث خرافية فى هذا البلد أو ذلك من القارة الأفريقية المسكينة .. وإنك لنلاحظ فوراً ــ مع ذلك ــ مدى سطحية كل هذه الاندفاعات ما إن تقترب قليـلا . . فلا حسن النية المتوفرة لدى الفرد العادى العاقل تماما عد مايدور فى الحقيقة وعن الأهداف الأساسية لكل ذلك ..لكل هذه الموجة التى اندلعت فجأة لماذا وكيف ومتى لايدرى على وجه التحديد . ولا المزولات الباهظة المدروسة المقننة يمكن أن تجعل من هذه الحركة (تـكتيكا) . فالأفريقى يرى بوضوح .. الأفريقى الشديد الحساسية يرى بوضوح وتتأكد لديه مجددا مدركات قديمة تحزنه ..

ومهما ردد بينه وبين نفسه ذلك القول الرصين (إن الإحساس الشديد بالوطن الافريقى .. لايعنى معادات الرجل الأبيض ورفض كل ماهو أوربى وإنما يعنى معاداد أدعائه وسيطرته) مهما اعتصم باعتداله ورفض التهوس فإن ثمة شعور خافت ــ بالمرارة حرى بأن يتسلل إلى حلقه شعور كفيل بإفساد كل شىء ..

لقد نجحت هذه المؤسسات والأجهزة إلى حد بعيد فى أن تخلق من الفرد الأوربى «أوربيا قبيحاً» والذى يحدث فى النهاية أن أسلوب الحياة ومصادر

المعرفة المتشابه هذه قد تترك على الناس ، على ملامح الوجه البشرى اختامها وبصماتها إذ تربى فيهم روح القطيع وتجعل منهم ببغاوات تردد بآلية (تستفزك وتشعرك بأن ثمة استهانة بك) أفكار سطحية وأراء مطلقة تأخذك كقضية مسلم بها .. أفكار جاهزة لم يترك للفرد الزمان أو السبيل إلى مراجعتها .. حتى إذا إطلع على «جوانب أخرى للامور) إصابه اضطراب عظيم « كالبط الداجن عندما تمر فوق رؤوسه أسراب البط البرى »

والنتيجة أنك حرى برؤية تعبير خائب وقد تهشم اليقين الفرح الذى يقال به مثلا — « أن مبادىء حلف الأطلنطى وصلاحيته — بما فى ذلك العسكرية — توكيد وضمان لشعائر العالم الحر » أو « أن المانيا لا نوايا استعمارية لها بدليل أنها لا تملك مستعمرات فى أفريقيا » لما يتضح أنه لا مستعمرات لألمانيا فى أفريقيا ولكن ليس لكونها راغبة عن المستعمرات وإنما بسبب هزيمتها فى الحرب التى آلت بسببها مستعمراتها (فى الكامرون وجنوب وغرب أفريقيا) الى الحلفاء .

والذى يحدث فى هذا الموقف المتوتر المحرج أنك قد تنصرف عن النقاش اذ تتصور أنه ثمة استهانة بك وبقضاياك الصميمة قبل أن يتكشف لك أن حقائق عن المانيا نفسها غائبة عن فكر محدثك مما يفسر كيف أن (قلب برلين هو المكان الوحيد الذى لا تحس فيه بازمة برلين) وانكما معا ضحية أفك عظيم .

(٣) مدارس التفكير

لكى ترسم صورة متكاملة المعالم لنفسية الانسان المستعمر فى ظل أنظمة معينة بتأهيله لقبول مفاهيم بعينها نجد أنفسنا مدفوعين أيضاً الا القاء نظرة على المؤثرات والعوامل المتحكمة فى نشوء ونمو وتطور الحركات الفكرية المحلية .

ومن أخطر هذه المؤثرات وعلى رأسها تقف مدارس التفكير الفرنسية ومدارس التفكير الانجليزية ومدارس التفكير البرتغالية باعتبار أن أفريقيا المجزأة خضعت فى أجزاء كبيرة منها للاستعمار الفرنسى والاستعمار البريطانى والاستعمار البرتغالى .

فلنستعرض — بشكل سريع التيارات الفكرية فى المجموعات التى انتظمها الاستعمار والتى حاول خلقها والتى أراد أن تدين له بالولاء الفكرى الى جانب الولاء السياسى والاقتصادى أيضاً وإن اختلفت درجات هذا الولاء بين مجموعة وأخرى باختلاف عشرات التفاصيل والعناصر وبتفاوت درجات المقاومة الفكرية وأسباب الاستعصاء والمنعة.

على أن أكبر وأخطر هذه المجموعات هما المجموعة الفرنسية والمجموعة الانجليزية ويسمى كتاب اللغة الفرنسية أنفسهم (جماعة الوجود الإفريقى) (Presance Afriquene)

. ولهم جريدة ناطقة بلسانهم تصدر فى باريس بنفس الاسم وشعارها (الزنجية) (Negretude)

وجماعة كتاب الانجليزية وتعتبر « أرفيوس الأسود » الأداة الناطقة بلسانهم «هذا وهناك حركة أوجدتها روافد المنطقة باسم «حرية الثقافة » ولها أنصار فى أجزاء متفرقة ولهم عدة مطبوعات منها « أضواء » و « جنوب أفريقيا » وهذه أدبية أخبارية تصدر فى باريس وبأكثر من لغة ويشرف على تحريرها مفاهلمليل الذى هاجر من جنوب أفريقيا إلى باريس منذ عشرة سنوات

وهناك أيضاً حركة « البان أفريكانزم » وهى حركة سياسية فى أساسها وإن كانت ثمة حركة فكرية تؤلف إحدى روافدها قد قامت بين كتاب من شرق وجنوب وغرب أفريقيا وتضم مجموعة من كتاب جنوب أفريقيا .

كذلك هناك حركة « الكتاب الزنوج » التى تضم كتاب من أمريكا الجنوبية (كوبا وغيرها) ومن الولايات المتحدة من جزر الكاريبى والمارتينيك والهند الغربية وقد عقدوا مؤخراً اجتماعا فى باريس حضره ريشارد رايت قبل وفاته بقليل — وأنه من بين حركة كتاب جزر الهند الغربية فى هايتى وكوبا قد نشأت حركة (النيجريزمو) التى تعتبر الأصل المباشر لمبدأ (الزنجية) — وقد حضر مؤتمر الكتاب الزنوج فى باريس كتاب من فرنسا وإيطاليا من غير الزنوج) . هذا طبعاً عن أفريقيا جنوب الصحراء باعتبار أن شمال أفريقيا الناطقة بالعربية تنتظمها ملامح وتقاطيع تختلف بسبب اللغة والدين ومن هنا كان تأثر أفريقيا العربية متفاوتا بالدرجة وعلى صعيد آخر .

فهنا نجد أن اللغة العربية بحسب كونها لغة قديمة مرتبطة بالدين وبمختلف العادات الاجتماعية المتوارثة منذ أقدم العصور — لغة عميقة الجذور قد استعصت بمميزات وخصائص لغة شاملة جامعة على الغزو

الفكرى بدرجة تتفاوت كثيراً عن غيرها من اللغات الافريقية — غير المكتوبة — ولقد اعتصمت بها أفريقيا العربية ولنأخذ الجزائر مثلا — ضد حملات فرنسا المدروسة المدبرة لطمس الشخصية الافريقية عن طريق سياسة التذويب والأقلمة Assimilation وتحطيم معنويات وخصائص الانسان المستعمر الذهنية فى المستعمرات الفرنسية ولقد عصمت اللغة العربية أفريقيا فى الجزائر — حتى ابان قرن وأكثر من الاستعمار وممارسة سياسة التذويب المقننة حين كان الذين يدرسون العربيـــة يطاردون ويضطهدون وقد سنت قوانين تحرم تعليمها وتعلمها وتغتصب المعاهد والمساجد القديمة القائمة وتستولى عليها وتستغلها فى أغراض مهينة . . أقول أن لغة مكتوبة ذات تراث وتقاليد يمكن أن تقف فى مواجهة أخرى ما دام التركيب الذهنى يمتنع على الغزو التام إذ تظل مركبات لغة أجنبية محض وسيط — حتى إذا فرضت — لنقل أفكار ومدركات (فُكِّر) بها وأدركت وتشكلت داخل نسيج من التجارب والعادات القومية وباللغة الأم . أنه يستحيل استيلاء لغة ما على ذهن بشرى يفكر بلغة أخرى (إذا صح التعبير) . انه يعبر بلغة أجنبية عن أفكار وتجارب خلفيتها جميعاً هى من نسيج الفكر والتجربة القومية المبذولة خلال عشرات التفاصيل والمعطيات اللصيقة بالعادات اليومية .

بمعنى أن اللغة ليست أداة كلام وحسب وإنما هى أيضا حصاد عريق عميق متكثف على صفحة الذهن البشرى منذ ما لا يحصى من الأجيال . . تراث مكتسب هو عبارة عن خبرات وتجارب قومية ذات عضوية متداخلة متشابكة يستحيل فرزها وتصنيفها إلى معاش ومكتسب ووراثى وهذا النسيج قد يهترى وقد يتخلخل أحيانا إلا أنه يظل يؤلف ملمس ولون ونقوش نسيج واحد على صفحة الذاكرة البشرية . . ودرجة التخلخل والتماسك تخضعان لمدى احتمال التراث القومى (الذى تدخل اللغة كأساس

لتدوينه وصيانته وحفظه من التدمير والضياع كعامل شديد الخطورة) أقول أنهما تخضعان لمدى احتمال التراث الفكرى لرد الفعل حيال العمليات المنظمة التى يقوم بها الاستعمار لتحطيم الشخصية القومية — هذه العمليات المقصود بهـــا تحطيم معنويات الشعب وسلبه الأساس المادى لأسباب اعتزازه وفخاره ومن ثم تشكيله فى قوالب (داجنة) بما يخدم بصورة كاملة الأهداف المبدئية لهذا النظام (١) القضاء على كل احتمال للمقاومة (٢) تبرير عمليات القرصنة والاستغلال بإثبات انحطاط الشعب المستعمر كجنس ودنيويته التى يتضح (امتياز الأبيض) حيالها فى مقابلة حادة (أبيض وأسود) (ممتاز ومنحط) .

وإذن فخيال لغة مكتوبة قديمة ذات خصائص ونوعية متساوية مع اللغة المفروضة الدخيلة يمتنع التركيب الذهنى على الغزو والاذابة الكاملة حتى إذا فرضت كأداة للتعبير فإنها تظل مجرد وسيلة لنقل أفكار وتجارب هى بالضرورة والنتيجة صميمة ولا يمكن طمسها وأن العكس أيضا صحيح — فتجاه لغة لا مكتوبة تقل فرص العافية الفكرية ويمكن أن تضاف المساحة الزمنية لفترة الاحتلال وحملات الاذابة كمؤثر جديد . . أى أن ٥٠٠ سنة لا يوقف فيها التطور والنمو الطبيعى لمدارس الفكر وحسب بل يضاف إليها أيضا عمليات ابادة وتدمير وتمييع وتشويه منظم للتراث القومى الى جانب عمليات التجهيـــل والحطو والإهانة وضغط جميع الإمكانيات لدى المبدعين . . أن خمسة قرون بهذا الحال والوضعية القهرية (كما فى مستعمرات البرتغال) هى بالمكان الأول وبالضرورة من أخطر المؤثرات على سلامة وعافية التجربة الفكرية فى أفريقيا . .

كنت أقول أن المجموعتين الرئيسيتين اللتان توجهان قطاعات كبيرة من الفكر الافريقى وهما المجموعة الفرنسية والمجموعة الانجليزية — تطرحان قضية الفكر الافريقى المعاصر كما يلى على التوالى : —

ترى جماعة كتاب الانجليزية (والتى تضطلع نيجيريا بدور قيادى فيها) أن اللغة الانجليزية لا تفرض نفسها على طريقة التفكير وعادات الكلام بنفس الدرجة التى تفعل بها اللغة الفرنسية ذلك — بمعنى أن الفكرة المؤسسة بأن اللغة الفرنسية هى لغة مكتفية قائمة بذاتها — نفاذة متسلطة بينما هى (مقدسة) أيضا وتعلن عن نفسها فى عادات الكلام وأساليب الفكر جاعلة من المتحدث بها فرنسيا بصورة كاملة — بمعنى أنه إذا أردت اجادة الفرنسية الأمر الذى تفرضه الكتابة بالفرنسية أو بأى لغة أخرى اذا ما اتخذت كاداة للتعبير والابداع — فانك يجب أن تفكر أيضا بالفرنسية . . يضاف الى ذلك طبيعة الاحتلال الفرنسى الذى يسمى المستعمرات (حدود فرنسا الاقليمية فيما وراء البحار) (أو فرنسا الافريقية) والذى هو فى حقيقته غزو واحتلال عسكريين هدفهما « فرنسة » ما يسمى بالاقاليم الفرنسية المكتسبة أو المستعادة (كما فى حالة الجزائر) وهم - جماعه كتاب الانجليزية - يرون أيضا أن حملات التذويب Assimilation المنظمة التى اتبعتها فرنسا فى افريقيا لم يستعصى عليها سوى شمال افريقيا — بسبب اللغة والدين ذلك أن افريقيا — فيما وراء الصحراء الكبرى — والتى تعرضت للغزو فى سنوات مبكرة جدا من تاريخ القارة وقبل أن يستكمل لهذه البلاد عناصر الثقافات المدونة والمكتوبة - اذ لا لغة مكتوبة لمعظمها فى أغلب الأحيان وحيث الدين قد استغلت دعوته ونشره كدعامة من أخطر وأقوى دعامات اقامة الأنظمة الدخلية . بينما أردف ذلك جميعا بحملات تتارية لابادة جميع مظاهر الحضارة والقومية الافريقية .. وأن النظام الاستعمارى الفرنسى الذى يؤكد نظريا أن رعاياه داخل حدود هذا الوطن ذو حقوق متساوية وبالرغم من أننا نعلم مدى استحالة ولا عملية هذا القانون فاننا نرى فى حالات وأن كانت نادرة جدا أن حالات «الذوبان» assimilation المثالية تتمخض عن نماذج كليوبولد سنغور الذى يدخل كنائب فى البرلمان الفرنسى الأمر الذى يستحيل تماما تصور حدوثه فى مجلس العموم

أو اللوردات البريطانى مهما بلغت درجة اجتهاد افريقى مستعمرات بريطانيا العظمى وكل ما هناك أنه قد يمنح لقب «سير» ويسمح له بتقبيل يد الملكة. معنى هذا أن المؤسسات الفرنسية قدر لها - بتكتيك طويل النفس - أن تحتل - بالضرورة - مكان المؤسسات الافريقية - سياسيا - واجتماعيـــا واقتصادياً - من خلال برنامج تربوى كامل أعد للشعب هذا فى الوقت الذى اكتفت فيه بريطانيا - عمليا - بتوفير كوادر من الموظفين الصغار والكتبة بينما حاربت البرتغال - حتى مبدأ التعليم نفسه حتى أنه وبعد خمسة قرون من الحكم البرتغالى فى افريقيا لم تؤت سياسة «صهر افريقيا فى بوتقة الحضارة البرتغالية» أكثر من ٥٠٠٠ آلاف حالة فى مساحة جغرافية تتجاوز بكثير حجم أوربا جغرافيا وسكانيا .. وأن معظم هذه الحالات من الملونين وهم أيضا يمثلون مدى اختلاط أوربيو البرتغال بافريقى مستعمراتها - وهذه أيضا حالات تنتشر فيها العلاقات غير الشرعية - أكثر مما تعكس نوعية الاستيعاب التى تدعيها البرتغال وتتخذها دليلا على انسجام النظام . وسوف نتعرض بتفصيل أكثر فى الفصل القادم . لمحاولات الاستيعاب عن طريق نظام التعليم « ومدينة » الأهالى والملونين .

على أنه بالنسبة لبريطانيا فاننا نرى على الصعيد المقابل أن الأمر مختلف.. ذلك أنه بالرغم من تساوى كمية الرداءة والشر وتعادل سوء القصد المبدئى والنهائى فاننا نعلم أن الاستعمار البريطانى قد شجع وعمق المفاهيم الرجعية والمتخلفة بينما أبقى على المؤسسات والتقاليد والمواضعات الافريقية - لأسباب لا يداخلها حسن النية بحال من الأحوال - وانما كأسلوب فى العمل - فعدم المجابهة وسياسة اللاعنف هى استراتيجية الاحتلال البريطانى التى ضمنت له الاطمئنان والاستقرار وديمومة الأحوال فى افريقيا وفى آسيا عشرات ومئات السنين قبل أن يستفيق شعوبها ويتنبهون لما جرى ويجرى لهم .. سياسة « دع الفتنة نائمة » بل ولا بأس من تهيئة جو النوم الهادى المريح

لها . . ولعل ذلك يناسب الامبراطورية البريطانية التي لا تغيب عنها الشمس وقد انتظمت في وقت من الأوقات أجزاء كبيرة من افريقيا وآسيا ونيوزلندا وكندا والعالم الجديد أيضا . الأمر الذى لا شك أوجد أزمة فى « كوادر » وزارة المستعمرات البريطانية وجعل من الاستعانة بالمشايخ ورؤساء القبائل والعشائر والعمد تكنيكا ناجحاً وعمليا - يمكن أن يعوض النقص الفنى فى وزارة المستعمرات ومن ثم فان مناصره أحد هؤلاء العمد فى سبيل توكيد نفوذه بين القبائل الأخرى يجعل احترام المراسيم والتقاليد القبلية فى الوقت الذى توجج وتغذى وتعمق فيه النعرة القبلية والانقسامات على مهل - استراتيجية هامة وخطير فى بناء الامبراطورية كذلك يمكن - بتحفظ - اضافة حقيقة أن الاستعمار البريطاني كان راغبا فى بعض الأحيان عن بعض المستعمرات - وقد اكتفى باعلان الحماية عليها وحسب - كما أنه فى وسط وشرق افريقيا حيث اضطر لحماية جماعة التجار الذين كانوا من خلال تعاملهم مع الأهالى المسالمين قد وجدوا أنه ليس من السهل - بعد استمرار مغامراتهم وأساليبهم فى التغول على الأرض وموارد الأهالى دون الاستعانة بالسلطة الاستعمارية فى طلب الحماية واستعدائها عليهم وقد وجدوا أنفسهم فى خطر بعد أن ظهرت ارهاصات رد الفعل لدى الأهالى وقد بهتوا وبوغتوا وطعنوا بدناءة من الخلف .

وقد استجابت الامبراطورية لهذا النداء - على مضض فيما يقال - (على أنه ليس من السهل قبول هذا الادعاء ببساطة - ذلك أن بناة الامبراطورة الذين بجدتهم بريطانيا وفرنسا وغيرهما هم هؤلاء القراصنة الذين دخلوا افريقيا باسم التجارة من أمثال اليونيليفر Uinilliver وشركة الهند الغربية وغيرهما) ويستطرد المدافعين عن وجهة نظر كتاب الانجليزية - أن خلاصة موقف بريطانيا فى افريقيا لكل هذه الأسباب بالاضافة إلى أن طبيعة اللغة الانجليزية التى لم تتوصل لادعاء كونها لغة (مقدسة) شاملة

بعد تجربتها ـ تجربة اللغة الانجليزية ـ فى أمريكا حيث وقف الانجليز يراقبون فى دهشة كيف تتحول اللغة الانجليزية تحت أبصارهم إلى لغة مختلفة على أيدى الامريكان وفى جزر الهند الغربية وقد انقض عليها كتابها تمزيقا وترقيعا جعلها لغة مستقلة تماما . ـ يقولون انه نتيجة لكل ذلك لم يصبح حتميا على الكاتب الافريقى فى مستعمرات بريطانيا أن يتحول الى بريطانى اسود كما تحول افريقيوا مستعمرات فرنسا الى فرنسيين سود حتى إذا أرادوا ذلك وهنا نجد حقيقة جديدة وهى أن البريطانيين أنفسهم وفى قرارة أنفسهم لم يحبوا الافريقيين أو يرو أنه يمكن الاندماج معهم بصورة حميمة فقد اتخذوا من الافريقيين موقفا متحفظا ولم يحدث بالرغم من الود الظاهر فى بعض الحالات والناشىء عن مقدرة الانجليز الفائقة على الاستعصاء على الانفعال العنيف ومقدرتهم على اخفاء عواطفهم الحقيقية تحت ستار من التحفظ التقليدى ، والبرود الانجليزى الشهير ، ولم يحدث بالرغم من ذلك او بسببه ـ فيما أعتقد ـ انسجام بالصورة التى تم بها انسجام مثقف فرنسا الافريقية والفرنسيين كما فى حالات مشهورة ـ فاغلب مثقفى مستعمرات فرنسا ـ وأقول مثقفوها ـ ذو زوجات فرنسيات ، سنجور ـ السنغال ـ فلبون مبا ـ الغابون ، وأن ذلك الانسجام قد فرنس حياة قطاع كبير من طبقة المثقفين ان لم يكن قد فرنسها جميعا .

ويمكن القول بأن الوضع فى مجموعه معقد ولا يمكن اطلاق حكم معمم مطلق ــ فالتيارات الفكرية فى افريقيا بالرغم من أنها ليست حديثة إلا أن اندفاعاتها الجديدة ـ حسب وضع الأشياء ونمو عناصرها ـ وضع مؤقت ـ وأن محاولة الحكم تتداعى اليها عشرات التفاصيل والدلالات فهل يمكن القول بأن موقف بريطانيا من المؤسسات المحلية ـ ذلك الموقف المتحفظ والمؤيد أحيانا على طريقة (دع البقرة ترعى واحلبها)

هل يمكن القول بأن بريطانيا قد تركت مستعمراتها اكثر عافية فكريا ـ باعتبار أن التميز والصميمية هما أهم عناصر الاصالة .

على أن التيارات السائدة فيها تحاول الدفاع عن موقعها ووجة نظرها تطرح هذه النقاط للبحث .

(١) أنه ليس هناك ما يسمى «بالزنجية» التى تنادى بها جماعة الوجود الافريقى وتؤكدها أو على الأقـــل هى ليست كذلك بالنسبة لـكتاب الانجليزية حيث تقل درجة تعرض المؤسسات الافريقية لعمليات الطمس والاذابة عما هى عليه تحت ظل الاستعمار الفرنسى .

(٢) أنه ليس هناك ما يسمى بالأدب الافريقى بعـــد وأن المشـكلة الآن تتحدد بالـكم وأن تحديد طبيعة هذا الأدب ما يزال يخضع لمقاييس وقواعد هى أوربية وتستمد وجودها من هذه المفاهيم والقيم والمقاييس. ذلك أن العالم الغربى ما يزال بهذه الوضعية يفرض نفسه كضمير فكرى فى محاولات الابداع . وأن المقاييس المحلية لم يتم التعرف عليها بعد ولم تؤسس بصورة واضحة .

(٣) ان جماعة الوجـــود الافريقى كـكتاب يتحدثون عن افريقيا بصورة « رومانتيـكية » كـما يتحدث سائح وكما تصور اعلانـات الدعاية السياحية الاجنبية افريقيا الأمر الذى يعكس رد فعل لمدى فرنسة هؤلاء الـكتاب واحساسهم فانه ثمة ما يدفعهم لتوكيد العـكس بعصبية ومسرحية «أنـا افريقى» وأن الكاتب فى نيجيريـا مثلا وبين كـتاب الانجليزية يعكسون موقفا أكثر عافية من القضية الافريقية ومن قضيـة «الزنجية» فى الأدب وأنهم لا يرون ضرورة توكيد ذلك بل العـكس . يرون الاحاجة لأن يحمل أدب ما أكثر من صورة سوية « عميقة برصانة» لقطاع الحياة التى

يعالجها وهنا يستوى انتاج الأوربى والافريقى ولا يعنى بالضرورة ان ما ينتجه كاتب افريقى هو بالضرورة أدب افريقى والعكس أيضا صحيح وأن الاصالة والصميمة والامتيــــاز يعان عن نفسه فى الطعم والنكهة والقيمة الحقيقية للعمل الابداعى وليس فى حجم اللافتات ولا فى درجة الضوصاء والمظاهرات العاطفية .

وقد قابلت كل من وولى بيير واولمبى باسير Ulli Bier. Olumbe Basir وكلاهما من نيجيريا ومن جامعة ابادان ويمثل كل منهما اتجاها فكريا مختلفا ولقد ناقشتهما طويلا ولقد كان انطباعى الأول الذى تأكد فيما بعد أن الأمر لا يعدوان يكون مسألة ثقافة فرضت نفسها بالدرجة الأولى فى الوقت الذى لم يقدم ولم يسمح ببديل لها وأنها مسألة أولوية ولقد رأيتنى ـ وأنا أجدنى أميل الى وجهة نظر كتاب الانجليزية ـ افكر أنها مسألة ثقافة فرضت نفسها ومقاييسها ومثلها بينما فرضت لغتها وأدوات تعبيرها .. وفى رأى ـ أيضا أن الزنجية هى رد فعل لسياسة الفرنسة ـ عبارة عن رفض واحتجاج على عنصرية بعنصرية أخرى . وأنها ليست تجربة فكرية سليمة .

ولقد لاحظت أن أنصار المذهبين لا يخلو انتصارهما لوجهة نظرهما من مهاجمة وجهة النظر الأخرى .

فباسير يقول ان كتاب الانجليزية لا يقرأون ما كتب بالفرنسية لجهلهم فى معظم الأحوال بها حتى يحكمون عليها وأن حركة كتاب الانجليزية قامت بين مجموعة من الشبان صغار السن وتتمركز فى غرب ووسط أفريقيا وخاصة فى نيجيريا وأن محورها جامعة أبادات ومركز الدراسات الاضافية على وجه الخصوص الذى يقوم عليه جماعة من المستشرقين وغير الافريقيين والذى يقدم بالتعاون مع مؤسسة (مبارى)

«(Mabari)» صلاحيات طيبة للنشر وهؤلاء المستشرقين برعايتهم لفئة من الكتاب الشبان لا يرغبون في حقيقة الأمر سوى فى أن تقترن أسمائهم بحركة انبعاث ونمو الفكر فى افريقيا وأنهم لا يمكن أن يكونوا مخلصين بالدرجة الاولى .

ويقول كتاب الانجليزية ان شعار « الزنجية » ربما يكون قد خدم أغراضه لكنه من المؤكد قد استنفد هذه الأغراض منذ وقت طويل وأنه بعد ليون داماس وليبولد سنغور «الذى قال باشفاق على أحد الكتاب الذين حرمتهم فرنسا من دخول أراضيها بسبب موقفه المعادى منها أبان حرب الجزائر «إنه يرثى له إذ قد حرم من التنزه عبر الشانزليزية» وأن الزنجية — حتى إذا كانت نقطة بدء انطلقت منها روح الشعر الأفريقى إلا أنها لم تعد تعبر الا عن مرحلة انتقال خاطفة فى حياة هذا الفن الذى هو من الغنى والوفرة والتنوع بحيث يستحيل خنقه داخل اطار (مزاج) «Mode» واحد .. وجدان عميق الغور لا يمكن الوقوف به عند حدود هذه النقطه . وأن غالبية حصاد الشعر فى نطاق هذا المبدأ ليست أكثر من محاولات دراماتيكية لتوكيد الذات ولا تتميز هذه المحاولات بخصائص أكثر من أنها كتبت بواسطة شعراء أفريقيون وان خصائص هذا المبدأ — كما تمناها روادها الأوائل لم تظهر سوى فى شعر ثلاث من شعراء السنغال وإذ لاحظنا أن السنغال هو البلد الأفريقى الوحيد (بين مستعمرات فرنسا) الذى خضع — منذ زمان مبكر نسبيا — لسياسة التزويب assimilation فإن هذه النماذج النمطية من ثمار هذه السياسة قد وضحت فى شخص سنغور كقمة لعملية الفرنسة هذه وهؤلاء عادة ممن عاشوا أجزاء كبيرة من حياتهم وتربوا خارج فرنسا وأن اشعارهم لاتجد لها صدى بين الافريقيين . وأنهم ليختلفون بدرجة كبيرة عن زملائهم الذين عاشوا فى أفريقيا وعاصروا نمو القضية

الوطنية وساهموا فى الكفاح ضد الاستعمار (الذى وكما يرى أولى بيير ـ لم يصل حتى أبان سطوته مبلغة فى تجربة جزر الكاريبى) حيث يتداخل ويتردد صدى تراث هائل من عادات وتقاليد الرقص والغناء والموسيقى الأفريقية .

وأخيرا يرى كتاب الإنجليريه أن مبدأ الزنجية ليس مبدأ ثوريا وأنه يدين العنصرية البيضاء بعنصرية أخرى ، وأن الامتياز « يتحقق بضبط النفس » الذى يسمح بتزواج التراثين العظيمين باعتبارهما الوالدين الشرعيين لتراث أفريقيا الذى يجعل ملامح وخصائص طفل مولد ـ متفردة ولا تنقصها العافية مع ذلك .

ربما ظلت هناك ـ بعد كل ذلك جوانب فى الظل لم تطرح بعد ولم يسقط عليها الضوء . وربما كانت قضية الفكر الأفريقى كما يطرحها هؤلاء قضيه مؤقتة تتوقف على مسأله الزمن الكافى . وإلى أن تتحدد الشخصية الأفريقية النمطية نهائياً متخذة ملامحها وسماتها بوضوح علينا أن نوالى بحثنا وتقصينا علينا متابعة امعان النظر والتبصر والمعاصرة المطلقة الواعية المسئولية . إذ مامعنى العافية .: وكيف يمكن الجلوس باطمئنان والتقرير بأمانة وبشرف أين وكيف تؤتى هذه العافية وهل من الحكمة الجرى وراء هذه المسائل فى الوقت الحاضر ... أليست الأمانة تعنى المسئولية ... الإحساس الملهم الصارم بالمسئولية .. أليست المسئولية تعنى استراتيجية العمل واستراتيجية التقرير بالمكان الأول .. التقرير ما إذا كان هذا الجانب أو ذاك هو مأوانا الفكرى وملاذنا وضميرنا أيضا . .

إن أفريقيا اليوم تتشكل يوما بعد يوم تحت أبصارنا مستعيدة عافيتها وتلقائياتها السليمة وقوتها نافضة عنها رواسبها وعقدها النفسية الرديئة مرة واحدة والى الأبد وهذا الذى يحدث اليوم هو من صنع أيدينا وعقولنا

وبإرادتنا جميعا وهو ديننا الذى استحق والذى يجب أن يوفى كاملا وبأمانة .. وهو واجبنا نحو العالم والبشرية جمعا (نحن مديونون لهم ولأنفسنا بعالم أطيب) كما قال كندى فى مشكلة الزنوج . وأفريقيا متشككة تعنى أوروبا متوترة .. تعنى عالما كئيبا يثقل القلب المخلص ، يملأ الحلق مرارة ويفسد طعم الحياة . ولقد وجدت الاخطاء الزمن الكافى لتتراكم وقد حدث الشر كل الشر .. وأن استعادة العالم لطويته السليمة وطاقاته على النوايا الحسنة .. استعادة التفاؤل أمر حرمناه طويلا وقد جاء أوان ممارسته مجدداً حتى يبقى للانسان خير ما فيه نقيا ونظيفا خالصا وحتى يعود للبشرية مقدرتها على الحب بلا تحفظ وبلا شائبة أو مرارة .

أما بالنسبة لافريقيا البرتغالية فانه من الصعب تحت وطأة ظروف تكشف لنا — وستتكشف لنا منها - بسبب سياسة التعليم والخدمات الدينية التى سوف نتعرض لها فوراً بالتفصيل مدى استحالة قيام حركات فكرية مميزة ليس بسبب كون البرتغال نفسها متخلفة فكريا وحسب وأنما بسبب انخفاض مستوى وكمية التعليم نتيجة سياسة التجهيل المدبرة وحملات الارهاب والابادة الفكرية والحضارية التى قامت بها البرتغال فى أفريقيا على مدار خمسة قرون من الزمن .. وتعتبر حملات البرتغال التتارية نموزجا فريدا بين جميع الأساليب الاستعمارية الأخرى .. التى تعتمد على طمس وضغط كل ماهو أفريقى وترويج المعلومات الزائفة والتشويش والتضليل والتلقين فى سبيل توكيد فكرة وهدف نهائين - انحطاط الافريقى - وانعدام اصوله الثقافية كل ذلك فى اطار اساسه محاربة مبدا التعليم أصلا . .

فاذا أضفنا حقيقة أن طبيعة المرحلة النضالية التى يمر بها الشعب الافريقى فى المستعمرات يجعل الحركة الفكرية نشاطا فرعيا ورافــــدا من روافد الحركة الكفاحية الدامية التى لا تسمح بسوى التعبير المباشر والتعبئة للمعركة بالرغم من تقريريتها وخطابيتها التى يبررها حقيقة ان الكفاح المسلح فى طور

من أطواره يجند كل قواه فى سبيل الهدف المباشر .. كسب المعركة ضد الاستعمار بأكثر الأسلحة حسما ...

ان التنظيمات الثورية تستلزم ـ تحت وطأة ظروف بهذا النوع انخراطا مباشرا فى العمل الثورى التنظيمى وعلى رأسه رصـــد الطليعة الفكرية للتعبئة العامة داخليا وعلى الصعيد العالمى .. ومن هنا كانت معظم «الكتابات» التى تطالعنا بها هذه الطليعة بمثابة التكليف الحزبى الذى تتطلبه هذه المرحلة التاريخية من القضية الوطنية .. ويتضح ذلك فى كتابات أمثال الدو دواسراتو Aldo do Esqirito Santo وملانجاتاناVante Malangatans جوزى كرافيرينـــة José raveriuha نيوميادى ســـوصا Noemiade Sausa وانطوان كاسينو Antonio Jacino وابل دجاسى وحتى أشعار اغسطينو نايتولا لاتخلو من هذه الخطابة والتقريرية مايبرره كما قلت هذه الخلفية المأساويه الرهيبة وتلك الالام التى « لاتصور » وبالرغم من هذا الوضع المأساوى وربما بسببه فان الذى يتم بمعجزة بين هذه الشعوب التى تعانى أهوالا كالجحيم نفسه « حيث القابض على دينه كالقابض على الجمر » وحيث يتأكد ان لاشىء يستعصى على الارادة الكاملة والتى بها تحققت أروع قصص الانسان ان الذى يتم على سبيل توكيد اصالة وصلابه الفكر والابداع فى أفريقيا حتى إذا تعلقت به طفليات وأخذت بخناقة دوافع وحوافز وردود أفعال ـ مهما قيل فيه فانه يؤلف نقاط بدء وانطلاق نحو افاق رحيبة مشمسة يرتادها الهواء النقى .. وارفه ظليلة منطلقة فى عافية متخففة من جميع رواسبها واوجاعها ومثبطاتها .

التعليم

يحتكر التبشير الكاثوليكى تعليم الافريقيين المتمدينين . وبمقتضى اتفاقية بين البرتغال والفاتيكان فان سياسة التعليم الارسالى الكاثوليكى يجب أن تتمشى مع مقتضيات الدستور البرتغالى ، وأن يؤخذ فى الاعتبار الاتجاهات التى تحددها الخطط والبرامج التى تسنها الحكومة المحلية الاستعمارية .

ويعنى هذا ، بكل بساطة، أن ٩٩٪ من السكان يستحيل عليهم الإنتماء إلى المدارس النظامية أو غيرها : وهذا الاحتكار التعليمى للارساليات الكاثوليكية يذهب بكل تأييد أو نفوذ تحاول الارساليات المسيحية الأخرى ادخاله .

ومن ثم فان وضع الأشياء بهذا الترتيب يؤدى إلى أن تبقى نسبة الأمية بين الإفريقيين فى أنجولا وموزنبيق وغينيا ٩٩٪ بينما تظل مساحات بحجم البرتغال نفسها دون مدرسة واحدة .

وفى عام ١٩٣٧ فى أنجولا استطاع ٤٠ ألف طفل فقط من مجموع السكان البالغ عددهم ٤ ملايين ونصف المليون دخول مدارس التبشير ، ودخولهم المدارس لا يعنى تعليمهم بقدر ما يعنى أنهم يصبحون مسيحيين، وهذا العدد الهزيل إذا ماقورن حتى بمثله فى المستعمرات المجاورة ، ولنأخذ الكونغو البلجيكى مثلا، حيث انتسب ٣٠٠ر٠٠٠ر١ طفل للمدارس الأولية بنفس العام ، أى عشرة أضعاف هذا العدد، حتى هذه المقارنة لاتذهب بالغبن الذى تولده مثل هذه الأحوال المرهقة . وحتى أبناء الملونين الذين

يسمح لهم — نظريا — بالانتماء إلى المدارس النظامية والتدرج فيها حتى الجامعة ، وهم يؤلفون حوالى ٣٪ من السكان ، هؤلاء يقف الاضطهاد العنصرى بينهم وبين هذه الفرص الممنوحة قانونا لهم ، وبسبب الامتيازات التى يتشدق النظام البرتغالى بتوفيرها لهم على اعتبار أن هذا الحصاد الملون هو توكيد لضرورة المستعمرات جزء من البرتغال نفسها ، ذلك أن الاستعمار البرتغالى يزعم أن له رسالة روحية مسيحية هى توكيد الحضارة البرتغالية فى المستعمرات عن طريق قانون الترقى من القطاع الأسود إلى الأبيض الذى تقيمه البرتغال فى المستعمرات . ومن مزاعم البرتغال الساذجة أن النظام الذى تقيمه فى المستعمرات هو أنسب النظم ، وأنه لا يوجد هناك من يفهم الافريقيين مثلها ، ومن ثم فانه ليس مدهشا أن تعرف أن فى جميع أنجولا على مدار خمسة قرون لا يوجد غير ٦ خريجين هم خمسة أطباء ومحامى واحد (أحد هؤلاء الأطباء الدكتور أغسطينو ناتبو أديب أنجولا الشهير ، وهو وجميع الآخرين فى السجن) .

هذا ، ولا توجد أصلا جامعات فى المستعمرات وجميع المدارس الثانوية لا يتردد عليها سوى أبناء المستوطنين ، فارتفاع نفقات الدراسات يعجز الافريقى والملون الذى تحدد دخله بسبب انعدام الفرص وعدم تكافؤها ، من ارسال ابنه إلى المدرسة ، وفى الحالات النادرة التى يحدث فيها ذلك يذهب الاضطهاد وسوء القصد بالبقية الباقية من صمود أصحاب هذه المحاولات .

وإذن فمادام بطلان هذه المزاعم واقعا لا يمكن نكرانه حسب المعطيات المحزنة التى تقدم نفسها كل يوم كدليل على فساد النظام الاستعمارى البرتغالى وتعسفه المنقطع النظير ، فانه من السهل قبول الحقيقة القائلة بأنه حتى هؤلاء الملونين الذين تقدمهم الادارة البرتغالية باعتبارهم مبررا لاستمرار

الحكم البرتغالي حتى هؤلاء لم يمنحهم البرتغال فرصا حقيقية ليرتقوا ويؤكدوا بنتائج امتيازاتهم مزاعم السلطات . فانه من بين هذا العدد من الملونين لا يسمح لغير القلة النادرة غير الظروف المضنية بالوصول إلى الجامعة . حتى أن هذا الأمر يقارب المعجزة ، وهذه الحالات النادرة لا تتعدى المئة حالة من بين ١١ مليونا هي تعداد سكان المستعمرات البرتغالية . وهؤلاء الطلاب الذين وصلوا مرحلة الجامعة أو على أهبة دخولها يتوجب عليهم الرحيل إلى لشبونة .

جميع المدرسين في المدارس الأوليـة والثانوية في كل من أنجولا والمزانبيق من الاوروبيين ، وهيئة المدرسين الأوروبيين هذه مدربة على أدق النظم وأكثرها تأهيلا للمهمة التي بعثوا من أجلها أساساً ، ألا وهي « تحطيم معنويات الافريقي » و « تزييف تاريخـــه وضغط حضارته » و « تشكيكه في امـكانياته الطبيعية » و « تشويش مقاييسه الجماليـــة والعقلية جميعاً » و « بث القيم والمفاهيم والمقاييس المهنية للافريقي » .

وبالاختصار استئناسه وتحويله إلى كائن « داجن Pet » .

ومن أجل حرب الابادة الثقافية والحضارية والتاريخية هذه ، تروج النظريات القائلة بحقارة الافريقي وهمجيته التاريخية ، هـذه النظريات المهددة لاحساسه بالكبرياء والقوة ، والهادفة إلى التقليل من شأنه تاريخيا ، وإلى تشويش العقول بالخرافات والأباطيل كنشر الثقافات الرخيصـــة والافكار الانصرافية ..الخ وطبيعي أيضا أن يكون تداول الكتب ومصادر المعلومات التقدمية والمعرفة أمر في حكم العدم . أن المؤسسات البرتغالية جميعا معنية عناية فائقة منظمة بالقضاء على الشخصية الافريقية تماما فاللغات الافريقية محرم تدريسها في المدارس ، ومحرم استعمالها على الملونين حتى في حياتهم العادية بحد القانون وتتم عمليات تحطيم معنويات الافريقي والقضاء على

شخصيته تحت شعارات عنصرية لا انسانيه يحرص فيها على تقديم الرجل الأبيض على اعتبار أنه من عنصر سام Super-*R*ace متفوق على الافريقى.

وترويج قصص البطولات التاريخية الأوروبية وقصص القديسين — وهم جميعاً من البيض — ويترادف هذه الصور التى يمثل الرجل الأبيض فيها دائماً الجمال والنقاء والقداسة والبطولة والقوة ، والنظرية القائلة بأنه أبيض لأنه وحده هو الانسان وجميع المثاليات المماثلة ، يترادف مثل هذه الصور عن الرجل الأبيض ينتهى الطفل من دراسته الأولية بعقد نفسية مزمنة تلازمه طوال حياته . أنه يتعلم أن يرهب الرجل الأبيض ويخجل من كونه أفريقيا ، يتعلم الخوف والاستكانة ، كل هـــذه ملامح الرسالة الروحية التى تحملها البرتغال إلى أفريقى مستعمراتها . . ويالها من رسالة !!

إن سياسة التعليم فى المستعمرات البرتغالية الى جانب مسخ عقول الافريقيين واغراق اذهانهم فى متاهة من المفاهيم المثبطة والمهينة، واعدادهم لقدر منحط على اعتبار أن الأبيض ، أبيض لأنه هو الانســان ، وأن التحضر والتمدن هو أن يلحق الافريقى بالركب الأوروبى ويتخلى عن عاداته لـكى يصبح متمديناً ويمارس حقوقا متساوية . . إلخ إلى جانب ذلك تفرض سياسة التعليم على الافريقى التخلى عن لغته ، وهى إذ تفعل ، لا تقضى على شخصيته ومقوماته وحسب ، وإنما تنهكه أيضا بتمثل معانى هى حسب تركيبه الذهنى غريبة ولا تحتمل ما يعنيه بالدقة الكافية ، وهى ترغمه فى ذلك على التفـكير بلغة هى ليست لغته . ولغة الأوروبى تظل بالرغم من أنها الأداة الوحيدة للتعبير لدى الافريقى ، تظل مجرد وسيـلة تقريبية بعيدة بدرجة من الدرجات عن المعنى الدقيق المراد التعبير عنه ، وهو — أى الافريقى — بسبب ذلك فى حالة صراع دائم مع وضعية وعرة « ذلك أن الصفات النوعية لمجتمع من المجتمعات — كما يقول سارتر — لتنطبق بالضبط على تراكيب غير قابلة للترجمة للغة التى يتـكلم بها » . أن

السود بسبب هذه الوضعية يجدون أنفسهم كعلماء القرن السادس عشر يتفاهمون باللاتينية ، ويكتشفون أنهم فى أرض مليئة بالأفخاخ الذى نصبها لهم الرجل الأبيض ، « فقد أعد المستعمر نفسه ليكون وسيطاً إلى الأبد فهو حاضر هناك حتى فى أكثر الاجتماعات سرية للتآمر عليه ، والأسود مضطر لاستعمال الكلمات التى فرضها المستعمر فى وصفه ، وهى اللغة الوحيدة التى يملك ولا شيء غيرها ، وهو إذ يفعل يتهم نفسه ، فهو يشير الى نفسه « بالملون وبالأسود » قبل أن يجد فرصة لتعديل الأوصاف بزمن طويل[١] .

والاستعمار عندما يصر على فرض لغته انما يعرقل الحركة الفكرية المحلية وهو يعلم ذلك كل العلم ، ويتشدق بالقول بأن هذه احدى عوامل الحاق الافريقى بالحضارة الأوربية ، وأن الافريقى لا حضارة له . وأن مثل هذه العملية (الحاق الافريقى بالحضارة الأوربية) هى عمل مقدس.

ان مفردات لغة صيغت على بعد آلاف الأميال ومن احتياجات أخرى — « ما دامت اللغة نشأت اشباعا لحاجة للتعبير . . ان مثل هذه اللغة تعجز عن احتياجات وآمال واهتمامات الافريقى ، وهى تلفه فى معركة صعبة ومربكة أيضا ، وهى تضع الافريقى « بين مائة عادة من عادات الكلام التى تجعل أفضلية الأبيض على الأسود شيئا مقدسا ، ، فالافريقى يتعلم أن يقول « أبيض كالسحاب ليدلل على البراءة » وأن يتكلم عن « سواد نفس وسواد جريمة » فهو لا يكاد يفتح فمه حتى يتهم نفسه »[١] .

إنه بسبب وضعيته الموحشة هذه مرصود للاضطهاد فى جميع الحالات ، فهو مضطهد بسبب تخلفه « وبداوته الوحشية » والتى تؤكد كونه جنسا « دون » مبرر اضطهاده وترويضه ، بل ان هذه العملية (عملية ترويضه »

---

(١) فى مقدمة أورفيوس الأسود لسارتر .

توضع فى مصاف العمل المقدس والرسالة الروحية و . . و . . الخ . أما فى حالة التمدين هو محكوم عليه باضطهاد نفسه بنفسه بالاستجابة لعادات الكلام المفروضة عليه بسبب اللغة .

واذن فان سياسة التعليم مجعولة لتصنيف الافريقى فى عداد المبرر اضطهادهم حتى اذا اجتهدوا وبالرغم من الاجتهاد وسببه أيضا . والسبب هو حصر هؤلاء الناس فى داخل أزماتهم الخاصة .. تخويفهم ، وتعقيدهم نفسيا ، وتسبيب الاضطرابات الفكريه والروحية والاجتماعية لهم .

شيء كاللعنة الأبدية . . وكل هذه الأساليب فى الانهاك . . وانتفاء امكانية التحضر الأصيل ، حتى اذا ماتوصلوا من هذا كله الى أن الافريقى غير قابل للتطور ، وأن العبقرية والنبوغ موقوفان على الأبيض ، وأن الافريقى على حسب أحكامهم التقريرية مخلوق بلا تاريخ قام التبرير الانسانى !! ذلك التبرير الذى يفتح الباب على مصراعيه أمام مواكب الحضارة الروحية ، بيارق المسيحية . . ورسل الانسانية . وهو تبرير أوصل الافريقيون الى ما وصلوا اليه الآن من هوان ، وما زال هذا التبرير الخادع قائم لتستمر الوصاية الاستعمارية على هذه الشعوب .

ان سياسة التعليم فى المستعمرات تكمل مأساة تجارة الرقيق ، ونظام العمل الاجبارى وتساويهما فى الرداءة والخطورة أيضا . . انها أساسا تبذل — بعد دراسات وخططا وخلاصة عقول جندت بحذر لتقديم أفضل ما لديها من أساليب الترويض — انها تهدف أساسا الى تصنيف الافريقيين الى نوعين :

١ — المخلوق المهتز المرتعب الخائف الذى يفكر ثلاث مرات قبل أن يبصق أو يبول فى الظلام أو يخرج من كوخه بعد الغروب . . مجرد كائن داجن ، كما يقول فرانز فانون ، تعلم كيف يقبل أن يركله

المستعمر ، ويمرغه فى الوحل ، ويجعله يجثو فوق ركبته أمامه دون أن يفكر — بعد ولسنوات طويلة — فى الاستجابة لرد الفعل البـــدائى حيال المهانة .

٢ — المخلوق الزائف اللامنتمى Misplaced الذى خرج من الجماعة التى كان ينتمى إليها بحثاً وراء كرامته ولم يجد مقابل ذلك سوى قوم يحقرونه فى الوقت الذى فقد فيـــه فرصته فى الرجوع إلى جماعته الأولى . أنه يقبل — بعد عمليات غسل أمخاخ ، وجلسات طويلة فى مكاتب العيادات النفسية على أيدى خـــبراء متخصصين — بالمؤسسات الاستعمارية ، بينما يظن أن فى ذلك أرضا صلبة يستطيع الوقوف عليها بدلا من تلك التى فقدها ، وهو لأجل ذلك يدافع غير أنه يكتشف أنه معزول ومنبوذ من كلا الطرفين ، مرصود . . للخيانة بصورة مؤكدة .

« (٤) الخـدمات الدينيـة »

يقول المسيح :

— « باركوا لاعنيكم وأحبوا مبغضيكم وصلوا من أجل الذين يسيئون إليكم» .

— « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » .

— « من سخرك ميلا فسر معه ميلين » .

— « من طلبك ثوبك فاعطه الرداء أيضاً » .

— « لا تقاوم الشر بالشر » .

— « لا تكنزوا لكم كنوزاً فى الأرض ولكن فى السماء حيث لا سوس ولا صـدأ » .

إذا كان لا بد من اعتبار التبشير بالمسيحية خدمات يفخر بها البرتغاليون فينبغى الاشارة إلى أن هذا الكائن المرصود للخيانة تخصص لمساعدته قيم ومدارس تفكير برمتها ، هناك المبشرون يملأون الجو بأبخرة تهيء العقول والأذهان لقبول هذه القدرية على أنها واجب ، وأنها استجابة لتعاليم المسيح ولوجه الرب (صلوا لأجل من يسيئون معاملتكم ومن يعذبونكم) ، (اجهدوا فى الدخول من الباب الضيق) ، « ينبغى ألا تندم على هذه الحياة أو على هذا الجسد الفانى ولا على كنوز الأرض المزيفة ، يجب أن تموت وأنت تنادى بأن البشر الذين يقتلونك هم اخوتك وأن تعترف بهم أخوة لك وأن تحبهم من أعماق الروح .

وإن المرء ليذكر الراهب أربيدودوكورنيل الذى كان ينادى بإبادة جميع الفنزويليين الذين تزيد سنهم على السابعة إبان الارهاب الأسبانى عام ١٨١٢ فى فنزويلا . . فالمرء لا يعدم أشباهاً له فى البرتغال « ما دامت هذه الفظائع غير مختصة بفترة من التاريخ كما يقول عمانويل ويلسن فى مقدمة «ثمن الحرية» ، ما دام الألم الذى يفجر صراخ البشر يتواصل منذ أيام سبارتاكوس ومحاكم التفتيش فى القرون الوسطى ومعسكرات التعذيب النازية وكراسى الكهرباء « وحروب الابادة فى الجزائر والقبور الجماعية فى موسامدس Mossamdes والشحنات المحملة بأطفال المدارس المقذوفة فى نهر لواندى . . وما دامت هناك أنهار الدم لم تجف بعد فى سطيف وهانوى ومدغشقر .

أقول إن المبشرين يبشرون بوحدة السلطة الاستعمارية والإلهية وسالازار ، فيزعمون فى كثير من الأحوال أن التمرد على جباة الضرائب نوعا من التجديف أو الالحاد ، ذلك أن الرجل الأبيض هو صاحب رسالة فى افريقيا . . صاحب رسالة مسيحيه روحيـــة وأن التمرد عليها — حتى

بالفكر — جريمة، ومن ثم فان كل مامن شأنه حماية هذه السلطة الاستعمارية هو جهاد فى سبيل المسيحية يثاب المرء عليه .

ولكن لا يكفى أن تكون مسيحيا أن تحتفظ بنفس غير ملوثة ،المسيحى هو أيضا جندى من جنود الرب ، ولابد أن تؤمن أيضا أن سالازار هو مبعوث العناية الإلهية الذى يستمد سلطته من الله القدير ، وأن كل من يعصاه هو عدو الله ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر تردد نغمة أخرى تقول « يجب أن تتلقى المهانة والعذاب كما فعل المسيح » .

دوامة كبيرة من المخدرات تتكاتف على الافريقى لتعده لمصيره، وتطالبه مع ذلك أن يضحى بنفسه بفرح فى انتظار ملكوت السموات .

وأن المبدأ البرتغالى القديم الذى يقول .(إما الصليب وإما السيف) يصف الحقيقة الواقعة من وقت الفونسود والبركبرك، وهى أن الدين أداة أساسية للجهود البرتغالية الاستعمارية ، ربما باستثناء فترة وجيزة أثناء عهد الماركيز بومبال ، وفترة أخرى بعد اعلان الجمهورية الجديدة سنة ١٩١٠ . ويعترف النظام الحالى بأن الكنيسة لها رسالة خاصة فى المستعمرات، وينص كل من قانون المستعمرات والميثاق الأساسى للامبراطورية على :

« أن الارساليات الكاثوليكية فى الممتلكات فيما وراء البحار هى وسائل المدنية والتأثير القومى » . وبعبارة أخرى يربط حكام البرتغال الزمنيون الدين بالولاء لسيادة البرتغال ، وهو تأثير يؤيده قوة البطاركة والكرادلة الشديدة والتعصب لنظام سالازار . وقد تزداد هذه النقطة وضوحا إذا اقتطفنا عبارة من عظة ألقاها بطريرك جوا . . قال :

« غير أننا نجد أنفسنا اليوم فى هذه الابروشية ، وهى مقر مطرانية الشرق ، وبطريركية جزائر الهند الشرقية، وشاهد قديم جليل القدر على

عظمتنا الماضية ترفع راية صليب المسيح وأننا نشكر الله على فضله الذى حبانا به خلال السنوات الماضية وبخاصة على اعتراف محكمة العدل الدولية بحقنا فى أن نبقى الآن كما كنا خلال أربعة القرون والنصف الماضية .

وإذا كانت هناك حاجة إلى المزيد من الموافقة القانونية على الخلط بين الدين والسياسية فما علينا إلا الرجوع إلى الدستور السياسى للبرتغال، إذ يقول :

« إن الارساليات الكاثوليكية البرتغاليـــة فيما وراء البحار وكذلك المعاهد التى تعد العاملين بهذه الارساليات أوخدام الدين ستتمتع بالشخصية المعنوية وبحماية الدولة ومساعدتها على أنها معاهد تعليم ومساعدة ووسائل لنشر المدنية بمقتضى نصوص الاتفاقية البابوية والاتفاقيات الأخرى الموقعة من البابا » .

فالبرتغال فى سبيل المحافظة على مستعمراتها التى هى وريد الحيـــاة بالنسبة لها ، تلجأ إلى ربط البرتغاليين بمصالح الأميرالية البرتغالية بعد أن وجدت أن الرجل العادى لا يفهم لماذا يساق ليموت فى بلاد مجهولة تبعد آلاف الأميال عن أحبابه وكل ما يربطه بالعالم ، فليس كل البرتغاليين من المغامرين ولذا تنشط دعاية سالازار فى ترديد نغمة إن استمرار الرخاء واليسر فى البرتغال مرتبط ببقاء المستعمرات ، وأن أهل المستعمرات إذ يجرؤون على التمرد على سلطة سالازار ، إنما هم يهددون سيادة البرتغال ، ويجرحون كبرياءها، ولم تكتف بذلك وإنما جعلت حروب المستعمرات حروبا صليبية يثاب المجاهدون فيها بجنات الخلد . فاذا وضعنا فى الاعتبار أن نسبة الأمية تزيد على خمسين بالمائة فى البرتغال ، وأنها معزولة عن روح العصر بسبب دكتاتورية سالازار، وضحت امكانية رواج مثل هذه الدعاوى الخطيرة .

إن إفريقي البرتغال في وضع فريد شاذ بما لا يوصف . . فدم الافريقي مباح — لولا خوف المستعمر من نتائج الإبادة على اقتصاده — مباح إذا استعصى على السلطة « لأن التمرد سيدمغه ، ومباح في سبيـــل الله وحسب تعاليم المسيح « المحرقة » أيضاً . أن الموت والخوف يترصدانه باستمرار .

« إن العالم الافريقي يصبح فيه الافريقي كائناً داجناً تحيط به السياج والزرائب » ، وليس نظام التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيـا سوى شكل من *أشكال التعايش التي يتعلم فيها الافريقي أول ما يتعلم « أن يبقى* في مكانه ولا يتجاوز حدوده المرسومة » .

إن الافريقي في نظر المستعمر مذنب على الدوام ، وذنبه « ليس ذنباً مقترفاً أو مكتسباً ، بل هو نوع من اللغة الأزلية والقدر المحتوم » ، أنه مواجه بضرورة التفكير — تحت وطأة حالة سيكلوجية بهذا النوع — مواجه بالتفكير ثلاث مرات قبل الاقدام على عمل يومي بسيط كالخروج في الظلام مثلا .

• — خاتمـــة :

« إن أفريقيا اليوم يمكن الحكم عليها من خلال مثقفيها ومفكريهـا وفنانيها وعلمائها ، الذين شاركوا بصورة عملية في حياة الشعب وكانوا فكره وطليعته في الكفاح » .

وأهمية هؤلاء المفكرين أهمية هذه الطليعة يرجع إلى أن أمامهم طريق طويل بعد الكفاح و (أن المفكر أو الكاتب يظل بسبب تربيته الفكرية المخادعة ومن هنا تحتم اتصاله الوثيق بالجماهير الشعبية) وذلك لمواجهة

المهمة المزدوجة . صيانة عافيته الفكرية وقيادة شعبه . . وأن أمامه طريق طويل من أجل تخليص الشخصية الافريقية من أزمة الثقة ليس بينه وبين الأوربى وحسب وإنما بين الافريقى والافريقى ومن العقد والرواسب التى أورثه إياها لسنين طويلة من القهر والغزو والابادة الفكرية والثقافية . .

ذلك أن بناء الشخصية الافريقية السليمة يتطلب جهداً يسوعياً إذ يصبح الصعود والاستعصاء على أساليب التزييف وأشكال الاستهانة المثيرة للاستفزاز أمر مرهق شديد الوعورة وقد « وجدت الأخطاء الزمن الكافى لأن تتراكم وقد حدث الشر كل الشر » . . أمر قد يستهلك (مع كونه جزئياً من المعارك الجانبية) طاقات يحتاجها الافريقى للبناء .

وعلى رأس عوامل انعاش واستعادة الافريقيين لثقتهم بأنفسهم وبطاقاتهم دحض الفكرة القائلة بدنيوية الافريقى وتوكيد حقيقة أن التربة الافريقية تحتضن منابع عريقة للحضارة وأن الكثير من الروائع الفنية والأدبية الأوربية هى ذات علاقة وثيقة إن لم تكن ذات أصل أفريقى . . وتصحيح المعلومات الخاطئة عن أفريقيا وتاريخها والعمل على (بعث الحياة غزيرة فى سير الأبطال القوميين وتاريخ الأمجاد القومية) . .

والذين يقولون إنه ليس ثمة سبيل إلى بناء حضارة أفريقية دون وساطة (لبنات أوربية) يتخذون من الأسطورة الزائعة القائلة بأن أفريقيا قارة بلا حضارة أو تاريخ وينطلقون من نقطة بدء خاطئة . وأن تاريخ أفريقيا الذى طمس بقصد وبتدبير شيطانيين غالبا وبجشع ودناءة أحيانا (حين كانت أدواة العبادة والزينات والنقوش الأثرية — كما فى بنين وأنيكا والمصنوعة من الذهب ومن المواد النفيسة تنهب وتتعرض بسبب القرصنة الأوربية للتدمير أخذه معها سجلات وآثار تاريخية هامة

تحكى جانبها من تاريخ القارة السلبية) إن هـذه القرصنة لم تكن سوى إحدى العناصر التى تألفت منها (حرب الإبادة الثقافية) لإفريقيا . .

ذلك أن ضغط اللغات المحلية ومطاردة حفظة التاريخ ورواة الأسطورة (الرجال الذين يحملون العلم فى صدورهم) وإلغاء بعض هذه اللغات كما فى المستعمرات الفرنسية والبرتغالية وإحلال لغة المستوطنين محلها بحيث أصبحت هـــذه اللغات أدوات ثانوية للتعبير وقد حرم تعليمها أو تداولها كلغة للخطاب بين (متمديني مستعمرات البرتغال) كل ذلك قضى على إمكانيات التعبير الصميمة وعلى أساليب التفكير الحميمة والتى هى بالضرورة والنتيجة من لوازم إصالة التعبير إذ بدونها تنتفى النكهة والطعم الافريقى للانتاج المحلى . . العمود الفقرى لصفة الإصالة . . وأن الاستعمار بمحاولته المنظمة « للقضاء على الثقافة والحضارة الافريقيين قد حرم العالم من مصدر من المصادر العريقة للثقافة الانسانية » . . .

على أنه يتوجب علينا حين التعرض لأسباب تمييع مدارس التفكير الافريقية وإلى تقلص ملامح الشخصية الافريقية على نحو رخو غير سليم - يتوجب علينا اعتبار موقف الأوربى العادى ووجهة نظره تجاه الافريقى . وهذا الأمر — أيضا — يشكل أحد عوامل تشخيص هذه الأزمة المعاصرة .

فالافريقى لا يستاء ويجرح وحسب وإنما لا يستطيع التغلب على الاحساس بالمرارة إذ يتكشف له جهل الأوربى به وبقارته هذا الجهل البديهى (الذى سوف نشير إلى جذوره بشكل سريع بعد) الذى ربما أمكن تبريره وان صعب استساغته .

إن الافريقى يعرف كل شيء عن أوربا عن آدابها وفنونها وعن تاريخها وحتى عن مدنها الكبرى بل عن أسماء ميادين ومعالم هذه المدن (هذه المعلومات التى جلبت إليه فيما جلب والتى قسر على تعاطيها فى الغالب)

فكيف يمكنه ابتلاع هذه الدهشة المؤلمة . . حقيقة أن الأوربى يجهله تماما جهلا يحمل معنى ونكهة الاستهانة وإذا كان هناك ثمة معرفة فانها حرية بأن تكون مما يزيد جراح الافريقى وألمه ويمس كبرياته ويستفزه . . كان يدهش الأوربى — بحسن نية وسذاجة أحيانا — لرؤية الافريقى ندا له إذا لم يتشكك أصلا فيم إذا كان حقيقة لا يحمل ذنبا فى مؤخرته .

وانني من الذين يصرون على أن هذا الأوربى ضحية نفس المؤسسات والمواضعات الاستعمارية . . حرب الدعاية المضللة . . شبكة التشويش السرطانية . ذلك أن الاستعمار قد لجأ إلى وسائل علمية مدروسة منظمة فرصد صلاحيات هائلة من العلماء والمفكرين ليوجهوا حرب الدعاية المضللة هذه والتى لم تكن موجهة ضد الافريقى وحده وانما وجهت إلى الأوربى أيضا وكانت النتيجة أن هذه الجرائم ارتكبت جميع هذه الجرائم باسم شعوب قد استولت عليها غفلة فاجعة قضت فيما قضت حتى على وعيها ومبالاتها بقضايا أوربا نفسها من خلال تنمية وتقوية وبث روح القطيع فى الفرد الأوربى العادى الذى تستولى عليه هموم الارتزاق والاهتمام الضارى بمستقبله البورجوازى وبعاداته اليومية التافهة فى ظل نظام مدفوع لتسخير كل ما يقع فى نطاقه من أجل السعى المجنون وراء الربح ابتداء بالعنصر البشرى — فلا يرى أبعد من موطىء قدمه ولا يسمع ولا يردد سوى ما تذيعه أدوات التلقين الملحاحة .

وإذن فامكاننا أن نخلص على الفور إلى أن هذا الموقف برمته هو باعث رد الفعل الذى يتحدد لدى الافريقى المستفز فى شكل تشكك فى كل ما هو أوربى وفى قلة أو انعدام الثقة فى نوايا الأوربى نحوه ..وقد أصبح الافريقى بحكم هذه الوضعية شديد الحساسية منفعلا بعنف.. شديد الكبرياء والتهوس فى رفضه لرأى موقف الأوربى منه سواء كان ذلك الموقف استهانة أو لا مبالاة أو جهل أو ضلال أو سوء قصد .

ومن ثم فانه على المفكر الافريقى أن يكون بصيرا ومعاصرا بصورة مطلقة(كما يقول رامبو) ليرى هذا القلق وهذا الهم وهذا الحب وهذا الانكسار الذى يعيش فى بلاده .. عليه التنبيه تماما إلى أن « أمامنا طريق طويل مملوء بالكفاح مجددا.فالقومية الافريقية رغم المثبطات جميعا ليست سوى ثمرة لشجرة كبيرة تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ ،وأن الكاتب أو المفكر كما قلت (يظل بسبب تربيته الفكرية معرضاً أكثر من شعبه لتأثير المذاهب الفكرية المخادعة وبسبب كل ما تقدم ومن هنا تحتم اتصاله الوثيق بالجماهير » وبأسباب العافية الفكرية وسلامة الحكم وتجنب الحوافز الانفعالية والاندفاعات الطائشة وردود الأفعال عليه والتنبه تماما إلى أن أوربا بدون أفريقيا لا تعنى شيئا وأن دورنا وواجبنا أن نعيد للعالم اعتداله ونقاءه .. وأن كثيرا من روائع الأدب الأوربى — الأدب الفرنسى مثلا — يرجع إلى انتاج الافريقيين والكاريبيين وأن نصف الطريق إلى أروع معجزات الانسان يمكن اختصاره بتوكيد دور أفريقيا فى الحضارة الأوربية وبمساعدة الأوربى العادى على استشراف المعلومات الصحيحة عن أفريقيا وبالتالى عن أوربا وعن نفسه وعن العالم وانتشاله من جهله وغفلته ولا مبالاته بالافريقى وبطاقاته الابداعيه والفكرية ومن ثم توطيد الثقة بجدارة بين الافريقى والأوربى (العالم أيضا) والانتصار للكرامة والقومية الافريقية .. أى توفير وإيجاد البيئة الخصبة لازدهار الابداع الفكرى .

ونقطة البدء الصائبة فى رأى تبدأ برسم برنامج تعليمى كامل ينهى مهزلة المقررات التى فرضتها (ولا تزال سائدة حتى الآن فى كثير من المدارس الافريقية حيث تقول آخر احصائية إن ٦ ملايين من التلاميذ يتلقون تعليما يتبع برنامج التعليم الفرنسى فى المدارس الفرنسية خاصة فى السنغال وساحل العاج وبعض مستعمرات فرنسا السابقة وأن آلاف الطلبة

يدرسون خارج بلادهم فى جامعات فرنسا نفسها — مثلا — يتعاطون عناصر ذات قيمة غذائية عظيمة تذكى باضطراد ولاءهم (الفكرى على الأقل لفرنسا) . أقول نقطة البدء هى انهاء المقررات التى فرضتها (وزارة المعارف الاستعمارية) وإعدام جميع الكتب المدرسية التى تؤكد رسومها وقصصها ومحفوظاتها وأناشيدها مفاهيم ضارة أشد الضرر والتى يتجرعها الافريقى بشتى السبل . . والتى وضعت ومنهجت بواسطة اخصائيين وأساتذة فى فن مسخ العقول والتلقين (Indoctrenation) تلك الصور والقصص التى تظهر « الافريقى الشقى » عار . . حاف . . حليق الرأس يجلس عند قدمى سيدة بيضاء هى مدرسته أو ممرضته إن لم تكن سيدته التى تقطر رقة وتحضرا وملائكية والتى تتفضل عليه « بالعلم والعلاج » و « بالحسنة النوعية أيضا » . . بينما هو لا يرفع اليها الطرف أبداً . . وانما يرفع يدين ضارعتين ترتجفان ذلا واستكانة فى استجداء أبدى ...

الفصل السابع

الحقوق السياسية

منطق الأستعمار البرتغالى :

يرفض سالازار بعناد أخرق مناقشة مبدأ حق تقرير المصير للمستعمرات وهو بالإضافة الى اعتقاده السخيف بأنه مبعوث العناية الالهية ، وأنه صاحب رسالة فى افريقيا ، ينكر على الافريقيين حقهم فى تقرير مصيرهم وسيادة أراضيهم باعتبارهم — وهو يعتقد ذلك اعتقادا راسخا — غير مؤهلين لذلك بسبب كونهم « جنسا أدنى » بينما لا يرى جدوى من ذلك « ما داموا لن يخدموا التقدم الانسانى فى شىء ، ولن يقدموا للحضارة شيئا يذكر كدول مستقلة .

وهذا استنادا على المفهوم القائل بأن الزنجى يستحق قدره ، فهو لا حضارة له ولا تاريخ ، وأنه عندما دخل الأوربى أفريقيا دخلها بروح مسيحية وكان صاحب حضارة روحية ، وأنه ما دام هؤلاء الزنوج لا حضارة لهم فإن الأوربى هو مبعوث العناية الإلهية ، وله أن يدخل أفريقيا باسم الانسانية .

وأنه صاحب الحق فى فرض القيم والمفاهيم والمثل التى يرى أن هؤلاء الزنوج يستحقونها ، غير ان هذا الزعم — حتى اذا تحقق أن أفريقيا قارة بلا تاريخ وبلا حضارة — هذا الزعم باطل مردود . ذلك أن الأوربى عندما غزا أمريكا وأباد الهنود الحمر وطاردهم وأجلاهم عن أراضيهم وأوطانهم وقف مبهورا مع ذلك أمام حضارة هؤلاء المتوحشين .

وأن التخلف المزعوم لأفريقيا وسوادها من الخرافات التى يبنى عليها الاستعمار خرافات ينكرها منطق الحرية المتعاظمة فى العالم اليوم ، فلم يعد الاسترقاق ، ولا الاستعمار ، ولا الوصاية ، ولا الاستغلال ، ولا الاضطهاد العنصرى والدينى ، لم يعد شيء من ذلك كله مقبولا فى عصر حقوق الإنسان

ادوات الاستعمار البرتغالى :

ليس للأفريقى حقوق سياسية ، وفى الحقيقة فإن البرتغالى نفسه لا يملك حقوقا سياسية ، ذلك أن البرتغال تحكم بواسطة نظام فاشى متخلف ما زالت تقوم فيه مفاهيم سياسية من القرون الوسطى .

غير أن الصلاحيات الاقتصادية التى يحظى بها الأوروبى البرتغالى هى قياسا لوضعية الأفريقى نعيم حقيقى .

لقد أتى الاستعمار البرتغالى إلى أفريقيا عام ١٤٨٢ مع أول أفواج المغامرين الأوروبيين المؤسسين لامبراطوريات ما وراء البحار . ومن يومها لم يغير فى وسائله كثيرا ، بل إنه لم يغير فيها شيئا ، وظل طوال ٥٠٠ عام يمارس سياسة تجبر وتعسف ترفض رؤية الحقائق أو الاعتراف بها بعد أن حطم المؤسسات السياسية والاجتماعية فى هذه البقاع .

وحتى زعماء القبائل المعروفون الذين أبقى عليهم مع حرصه على استمرار الرواسب القبلية وتعميقها ، حتى هؤلاء جعل منهم مجرد ألاعيب وأذناب للسلطة الاستعمارية ليستغلهم ويضغط عن طريقهم على الأهالى ، وهم غالبا فى وضعية حرجة ، وبين مجموعات لا ينتمون إليها فى الحقيقة .

فهناك ما يسمى بمجالس الحكومة المحلية التى يعينها الحاكم ، إذ من المفروض أن يوجد هناك أحيانا عدد من الافريقيين يمثلون الأهالى ، غير أن هؤلاء النواب عادة أوروبيين ، والقلة من الإفريقيين الذين يقبلون هذه المناصب

لا حق لهم فى التوسط فى مصالح الأفريقين . ففى إحدى الحالات طرد أحد النواب الملونين من منصبه لأنه جرؤ على انتقاد الحكومة فى أمر من الأمور ، وعندما عرض هذا المنصب على أحد الأطباء القليلين جدا اعتذر قائلا : «إن الشيء الوحيد الذى أجيده هو الطب» ، وفى النهاية قبله قس أفريقى تحت ضغط « بطريق » لواندا .

وفى برلمان لشبونة يوجد نائب افريقى واحد من بين ١٢٠ نائبا برتغاليا وهو نائب سان تومى San Tomé ، ونائب أرخبيل الرأس الأخضر أوروبى الأصل وهو رئيس الحزب الفاشى فى المستعمرة ويشغل هذا المنصب مدى الحياة .

وممثلو أنجولا والموزانبيق وغينيا أوروبيون ، ومصالحهم مرتبطة مباشرة بالاستثمارات الاستعمارية ، وجميع نواب المستعمرات يتمتعون بثقة الحكومة الاستعمارية الفاشية المطلقة . وليس ثمة ما يجمعهم أو يربطهم بالإفريقيين ، الذين لا يملك ٩٩٫٧ ٪ منهم على أى حال حق التصويت أى رابطة .

ويستغل النظام البرتغالى ثلاثة أفريقيين كعملاء له ، أو كموضوع للدعاية عن فئة ليست موجودة إطلاقا ، بأن يوفدهم ضمن الوفد البرتغالى الى الأمم المتحدة مثلا ، أو الى أى من المحافل الدولية على سبيل الدعاية للنظام ، والتدليل على سياسة ، صهر الأفريقيين فى بوتقة نظام سالازار « الفريد » ! !

وهؤلاء الثلاثة يعتبرهم الأفريقيون خونة وعملاء أفسدتهم الرشوة وتساقطوا أمام العروض الشخصية التى تبذلها البرتغال ثمنا . واثنان من هؤلاء ملونان

وهما : أوغسطس ماليا (من الرأس الأخضر) ، وجوليو متيرو ، والزنجى الوحيد هو جيمس نينوبول (من غينيا) .

بالاختصار فان جميع أشكال الحرية والديمقراطية والمساواة والتنظيمات والنشاطات الشعبية محرمة ومعدومة بكل الوسائل ماعدا بعض النوادى الرياضية ودور النشر والصحافة وجميعها مقفولة ، ووقف على البيض ، وعليها لافتة (الافريقى والكلب لا يدخلان) ! !

أساليب الاستعمار البرتغالى :

إن أحد عشر مليوناً من الإفريقيين يعانون تحت وطأة مثل هذه الأحوال ، وهؤلاء الأحد عشر مليونا من الافريقيين كانوا يملكون أصلا أراضى مساحتها مليونان من الكيلومترات المربعة ، أى ما يعادل ٥ ./. من مجموع مساحة القارة الأوروبية مجتمعة ، وتفوق مساحة كل من أسبانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وانجلترا . هذه اليوم هى مساحة البرتغال فى أفريقيا والتى يعيش الافريقيون فوق أقل مناطقها شأنا ومساحة بعد أن طردوا . وانتزعت منهم أراضيهم ليحتلها البيض .

إن شعوب هذه المناطق قد استعبدوا لسنوات طويلة بواسطة بلد صغير هو فى نفس الوقت أكثر بلدان أوروبا تأخراً . وهذان المليونان من الكيلومترات من الأرض هى أراضى غنية بثرواتها الطبيعية ، غنية بمحاصيلها الزراعية والحيوانية وتحوى بطونها ثروات معدنية لا تقدر بثمن كالحديد والمنجنيز والماس والزيت والذهب والمعادن النفيسة .

وهى بلاد ذات حضارة قديمة أنكرها البرتغاليون بعد أن أطفأوا كل جذوة حضارية وجدوها فوقها . إن لهذه البلدان الافريقية ، إلى جانب كل

ذلك ، طبيعة جميلة تقدم إمكانيات سياحية هائلة : ولقد حولت جميع هذه الطاقات والإمكانيات بفضل الاستعمار البرتغالى إلى مجرد مزرعة خاصة تابعة للبرتغال يجب أن تحلب جميع خيراتها ، وتعتصر إمكانياتها وتصادر جميعها لصالح المستوطنين .

وإلى جانب ذلك يعيش الافريقى شبه ، أو أقل ، من العبد فى وطنه محاطا بالزرائب والسياج ، وفى مناطق منعزلة كالأجرب ، معزولا جغرافياً فى مناطق من الأرض ضئيلة وقاحلة .

فنى أعقاب عهود الرقيق وبعد الغزو المسلح وبعد الحروب الاستعمارية بدأت الإبادة الشاملة للمجتمعات الافريقية واقتصادياتها ومؤسساتها جميعاً .

فنى أعقاب عمليات الغزو الأوروبى للسواحل الإفريقيةوراء الأيدى العاملة وتجارة الرقيق لشحنها للعالم الجديد ، والبحث وراء الذهب ، بدأت عمليات تحطيم المجتمعات الافريقية وإبادة حضارتها وتاريخها .

ثم تلا ذلك الاحتلال الكامل لهذه البلاد طمعا فى خيراتها وطاقاتها وجريا وراء المواد الخام لصناعات أوروبا النامية باضطراد ، ورأسماليتها الطالبة بالحاح للربح ، ثم للأسواق وتزايدت الهجرة وعمليات الاستيلاء على الأراضى بالقوة لتأسيس الاقطاعيات الاستعمارية ، والاحتكارات والمؤسسات الاستثمارية ، وطرد — خلال هذه العمليات — الأهالى من أراضيهم ، ودفعوا إلى الداخل ، وإلى الغابات التى كانت مجهولة ومظلمة بالنسبة للرجل الأبيض ، وانتشرت الأساطير القائلة أن الأوروبيين هم أول من استوطن هذه البقاع وأنهم عندما جاءوا إليها لم يكن فوقها أثر للحياة البشرية ، والقائلة بأن أفريقيا لا حضارة لها وأن سكانها كانوا

بسبب انعدام الامن ووسائل العيش التى تطلب التنقل والترحال لم تكن لهم حضارة ما ، وذلك لتبرير الاستيلاء على الأرض أولا ، ولاستعمار الأهالى ثانيا . والبرتغالبون من أوائل من وطىء الأراضى الافريقية من الأوروبيين ، وقد دخلوا فى القرن السادس عشر بحثاً عن طريق للهند ، غير أنهم توافدوا عليها بعد ذلك سعياً وراء الذهب والرقيق ، ويقال إن السود قد عرفوا عن طريقهم النباتات الأمريكية كالذرة والقلقاس والمانيك Maniok . ولقد أظهر البيض جشعهم لجمع الرقيق لينقلوهم إلى مزارع العالم الجديد ، ولئن كان الرقيق الذين انتزعهم البيض عنوة من بلادهم قد حرموا من الإرث المادى والحضارى ، إلا أنهم تركوا لأحفادهم أحاسيسهم الخاصة وبعض التقاليد التى انحرفت قليلا — كما يقول دنيس بولم — بسبب احتكاكهم بما جاءهم من الخارج ، وبسبب القهر الفكرى والإنهاك غير أن هذه التقاليد والأحاسيس لم تفقد أصالتها ابدا بالرغم من أنها ظلت مطمورة مضغوطة ومشوشة . . وهى اليوم بسبيل الانبعاث والنماء .

ولقد دمرت تجارة الرقيق المجتمعات الافريقية ، وتضاعفت الحروب التى تؤدى الى ضعف هذه المجتمعات فانهارت واحدة بعد الأخرى ، وكان فقدان الأمن العام بسبب المطاردة والغزو والاحلاء وعمليات الاستيطان المتواصلة من جانب الأوروبيين ثم الاضطهاد الذى مارسه القراصنة البيض خلال عمليات السطو على ممتلكات الأهالى أوصلت الافريقيين الى مستوى حياتى بائس .

ويقال إن البرتغاليين فى مقابل التجارة قد أدخلوا الكاكاو ونبات الفول السودانى ، ولقد حملهما هؤلاء الى ساوتومى ، من أمريكا ليقدموه غذاء للرقيق أثناء نقلهم . ويقال أيضاً أن السود توصلوا لمعرفة الإيغنام Ignam

عن طريق البرتغاليين خلال نقلهم إلى العالم الجديد أيضا ، وهذه النباتات من مصادر الثروة الافريقية اليوم . ولقد غيرت زراعة الفول السودانى والكاكاو مظهر الأرض الواسعة كما أدخلت تغييراً جذريا فى نظام الملكية (فى بدء دخولها الى أفريقيا) .

على أن مظاهر التفرقة أخذت بالتزايد مع ازدياد عمليات الاستيطان التى أخذت معها المساحات المحتلة بواسطة الافريقيين تتضاءل يوما بعد يوم حتى وصلوا الى حالة بؤس شديد ، وسنت القوانين التى تحرم عليهم الملكية أيا كان نوعها . وتفاقمت صعوبات الاهالى فى تسديد الضرائب المركبة مع انعدام فرص الدخل فهناك ضريبة السيادة Sovereignity Tax وضريبة الكوخ ، وضريبة الدخل الخ .. وجميعها مصطنعة قصد منها ترك الافريقى معدما مشغولا بمسألة الارتزاق التى تؤجل وتنفى كل امكانية للتفكير أبعد من معدته الخاوية أبداً وبتدبير ماكر .

وجميع أشكال القهر والانهاك هذه من أوليات سياسة توكيد مكانة المستعمر فى المستعمرات ، غير أن نظام سالازار فى أفريقيا قد عمل على ابقاء الأهالى فى حالة تخلف أبدى اقتصادياً وفكريا ، وبأطول مما فعل المستعمرون الأوروبيون الآخرون ، وقد أسلفنا أن سبب ذلك مرجعه إلى نظام الحكم فى البرتغال نفسها .

وقد استبسلت البرتغال فى الإبقاء على وضع الأشياء كما كانت عليه منذ قدومها ، بل أن الحال قد أخذ بالانكفاء والتأخر بأكثر مما كان من قبل كما قلنا ، فمثلا ، فى تعديل الدستور البرتغالى ، وفى التغول المجدد على ممتلكات الأهالى بانتزاع البقية الباقية من أراضيهم الهزيلة وتحويلها إلى اقطاعيات للبيض الذين أخذت البرتغال تشجع هجرتهم وتمنحهم امتيازات مجددة أكثر سخاء ، حلما فى توطيد اتحاد آخر كاتحاد جنوب أفريقيا تقل فيه

نسبة السود وتتلاشى صلاحياتهم غير أن الأمر بقى مجرد حلم أيضاً ، ذلك أن المستعمر مواجه بحاجته للابقاء على الافريقى لتوفير الايدى العاملة ، وهو لا يستطيع بسبب هذه الحاجة ابادته إبادة شاملة . ومن هنا كان حرصه عليه ولكن فى حالة صالحة للاستغلال وحسب وليس أكثر وقد حرمت المنظمات العمالية ، والسياسية ، والاجتماعية ؛ واتحادات الطلاب ، وجميع المنظمات الشعبية على الافريقيين ؛ وبقى الافريقى محروما من أقل وأبسط حقوقه ؛ ومن كل امكانياته فى الدفاع عن هذه الحقوق ، بل وعن حياته أيضاً ، واقعاً تحت رحمة أهواء المستعمرين . وقد قطعت البرتغال خط الرجعة — أو توهمت أنها قطعته — عندما عدلت دستورها عام ١٩٣٥ ووضعت بدلا من كلمة مستعمرات كلمة « أقاليم » قائلة إن هذه الأقاليم ليست سوى حدود البرتغال فيما وراء البحار ، ومن ثم فليس هناك مايطرح من قضية حيال هذه الأقاليم وأن كل مايدور داخلها هو من الشئون الداخلية للبرتغال ، وهى ليست ملزمة — والأمر كذلك — لتقديم أى تقرير عن هذه الأقاليم لأى جهة من الجهات ، ولا حتى الأمم المتحدة التى طالبت بتقرير عن الأحوال هناك فى ذلك الحين ..

ولو كان ينفع مثل هذا التحايل على الواقع ، أو التمنى بالأباطيل ، لنفع ذلك فرنسا فيما فعلت بالجزائر العربية العظيمة ، التى كانت فرنسا تعتبرها مديرية من مديرياتها ، وراء البحار .. ولكن الجزائر .. مع ذلك قد تحررت وظلوا لأكثر من مائة وثلاثين عاما جزائريين وعربا ، محتفظين بحقيقتهم الحضارية والتاريخية ، وسيظل الأفريقيون كذلك على الرغم من البرتغال وأحلامها وأمانيها وتحايلها وخداعها لنفسها .

الفصل السابع

الحركات التحررية والمقاومة الشعبية

بالرغم من آلامهم وبؤسهم الذى يبدو لطول سكناه على أراضيهم حتى ليمكن أن ينطبق عليهم القول بأن جميع بؤساء الأرض ليس لهم أمل فى الخلاص سوى أبطال كافكا وضحايا الاستعمار البرتغالى . وبالرغم من ذلك حافظ الأفريقيون على مقاومتهم وصمودهم وصلابتهم . فخلال الحروب الاستعمارية اتخذت أشكال المقاومة نحوا مسلحا بالرغم من أن أسلحة البرتغاليين هى بالضرورة أقوى وأعتى بينما كان أساس المقاومة الشعبية الايمان القوى بعدالة موقفها وبأن الأفريقيين يدافعون عن أرضهم وحيواتهم وكل مايملكون ، وأن معركتهم هى معركة كل أفريقى ، وأن أحباب الحرية جميعا إلى جانبهم ،وأن روح العصر تنتصر لهم وتناصرهم وتظاهر قضيتهم فى مواجهة عدو يدافع عن قضية خاسرة ، وجيش من المرتزقة والمأجورين الذين ينقصهم الايمان وجنود يضطهدون أنفسهم وإنسانيتهم بالقيام بدور الجلاد لشعب يريد الحرية ويظاهر أعدل المبادىء

ولقد اتخذت المقاومة شكلا سلبيا فى فترات الهدنة المؤقتة التى أخذت تقل وتتباعد لتعود بعدها حملات الارهاب والقمع بأشد وأشرى مما كانت ، وقد أخذ الجيش والبوليس يسخر جميع إمكانياته ، وتوضع فى يده أحدث الأسلحة وأشدها فتكا ويعاد تنظيم الأمن والبوليس لمواجهة الانتفاضات المتكررة للافريقيين الذين أدهشوا بوقاحتهم السلطة التى لم تفهم كيف ولماذا يجرؤن على التفكير فى مقاومتها وعصيانها مع أنها ادعت

لوقت طويل - ولا تزال تدعى - أنها الحكومة الوحيدة التى تفهم الأفريقيين وتقدم لهم الحكم الذى يناسبهم وهو ماتراه لصالحهم .

سوى أنه فى مقابل القمع والارهاب المتزايد والذى يعيد إلى الذهن صورة عهود الرعب والارهاب التى مارسها من قبل اسبان من أبناء عمومة سالازار ، والبرتغاليون فى فنزويلا والبرازيل، وفى مقابل الارهاب الذى يستعصى على التصور كانت المقاومة الشعبية تشتد وتتبلور واجدة البيئة الصالحة لأن تنظم وتوحد ، ذلك أنه حتى القمع له محاسنه ، فبينما تواجه الجماهير المضغوطة بالاضطهاد والضرب المباشر ، تقوى لديها حاسة التنظيم وأساليبه نتيجة تكتيكات كرد فعل للعنف المباشر . وكنتيجة لأزمة الاستعمار فى افريقيا وانتشار الوعى فيها ، واليقظة الافريقية المطالبة بإعادة الحرية والكرامة لشعوبها المستنزفة ، مع هذا المد دخل تيار جديد يتجاوب مع احتياجات الانسان الافريقى الحديث مخترقا حتى ستار الصمت الكثيف ، ومشققا جـ دار العزلة الرهيبة التى فرضتها البرتغال على مستعمراتها لعصور طويلة جاعلة من هذه المنطقة قبرا جماعيا كبيرا ساكنا، ترتفع جدرانه كجدران سجن كبير يئد جميع صيحات الاحتجاج والاستغاثة لقد اخترق تيار الوعى الجديد متاريس سالازار إلى منطقة الصمت التى أخرسها بنظام قاس عجيب وفريد ..

اتخذت حركات المقاومة اذن أشكالا سرية بطبيعة الحال ، بسبب الصعوبات الهائلة ، وبالرغم منها نجحت فى إسماع صيحات الضحايا للعالم ، واذاعة قصة الاستعمار البرتغالى الوحشى عليه ، وأمام هذا الطوفان الجديد الذى لا يقهر ارتفعت درجة سعار الفاشت .

ولقد انتشرت المنظمات السرية السياسية فى كل ركن من أفريقيا البرتغالية مستجيبة بصورة ايجابية مع المطالب الشعبية للاهالى، وانتظمت

الكتل الجماهيرية فى سان تومى ، والرأس الأخضر ، أنجولا ، وغينيا . وقد اكتشفت قدراتها وصلاحيتها المضغوطة متضامنة لأجل هدف واحد مشترك هو الحرية .

وبسبب اضطرارهم للعمل سرا كون الوطنيون منظمات للمقاومة فى الخارج والداخل متضامنة فى ذلك مع منظمات المقاومة الافريقية الأخرى ولقد لجأت هذه المنظمات مؤخرا الى التكتل فى جبهة وطنية موحدة هدفها الأساسى القضاء على الاستعمار البرتغالى وانتزاع استقلال المستعمرات . وهذا التكتل أدى الى اشتداد الحركة وتقوية أساليب الكفاح ضد نظام سالازار الذى يواجه المقاومة حتى داخل البرتغال نفسها . ولقد عبر الشعب البرتغالى ـ لدهشة سالازار ، وكأمر طبيعى مفهوم لدى كل مطلع متطور متجاوب مع روح العصر ـ عبر الشعب البرتغالى عن مشاركته وتعاطفه مع الافريقيين فى أكثر من مناسبة . ذلك أن دكتاتورية سالازار الفاشستية وحروب المستعمرات أمر لا يفهمه ولا يقره الرجل العادى الذى لا مصلحة له فى الاحتكارات والاستعمار البرتغالى فى أفريقيا ، بل انه ملعون ـ بسببها ، ذلك أن هذه الحروب التى لا ناقة للشعب فيها ولا جمل تكلف هذا الشعب نفسه ، أبناء وأزواجاً وآباء ينطلقون دفاعا عن قضية لا يقرونها بينهم وبين أنفسهم ، ويموتون فى معركة بلا شرف ، ويدفنون فى مجاهل رهيبة ميتة محزنة حتى بلا شواهد على قبورهم . حتى أكثرهم تعاطفا مع سالازار لا يفهم بسهولة رسالة المسيحية فى أفريقيا .

إن البرتغال تضم اليوم حركتين شعبيتين هدفهما الاطاحة بنظام سالازار وربط البرتغال بالعالم ، بركب الحضارة والتطور ؛ فإذا أضفنا الى هاتين الحركتين حركة المقاومة فى المستعمرات استطعنا استشراف نهاية سالازار العاجلة . ففى الكونغو ، وفى تنجانيقا . وفى شمال أفريقيا ، وفى

أوربا ملايين من أفريقى أنجولا وموزانبيق ، وفى نياسالاند وروديسيا عشرات الآلاف من غينيا والرأس الأخضر ، وفى مالى والسنغال ، وجمهورية غنيا وفى جمبيا Gambia أيضا يستقر هؤلاء المطاردون بعد محاولات مميتة للهجرة ، ذلك أن البرتغال ليست حريصة عليهم إلا لأنهم يشكلون عنصرا من عناصر تجارتها الخارجية ورصيدها من العملات الأجنبية بالاضافة إلى أن تكتلهم فى منظمات تنادى بمطالب الشعوب الأفريقية الواقعة تحت نظام سالازار يحرج البرتغال ، ويؤلف مصدر أرق وإزعاج لها فى الخارج حيث يجد هؤلاء اللاجئون تسهيلات وامكانيات لاكتساب تأييد ومؤازرة أنصار الحرية ،وتضامن الرأى العام العالمى معهم أن البرتغال يصيبها الجنون كلما نجحت محاولات ضحاياها لإسماع أصواتهم للعالم .

وأهم حركات المقاومة الأفريقية هى .

١ ــ حركة تحرير المستعمرات الافريقية وقيادتها فى طنجة (المغرب) من الطلاب المولدين والمقيمين فى باريس .

٢ ــ الجبهة الثورية لتحرير أنجولا وكاب فرد (الرأس الأخضر) ومقرها كوناكرى (جمهورية غينيا).

٣ ــ اتحاد شعب شمال أنجولا (وهذه هى المناطق المحررة وتقع تحت النفوذ الوطنى) وتدار من ليوبولد فيل (الكونغو)

٤ ــ اتحاد عموم شعب أنجولا ، ومقرها ليوبولدفيل ، وهذه هى الوجه الجديد للحركة السالفة بعد تأليف الحكومة الثورية المؤقتة .

٥ ــ الحركة الشعبية لتحرير المستعمرات ، ومقرها ليوبولدفيل .

وقد تكونت خلال أبريل الماضى الحكومة الثورية المؤقتة للثورة الشعبية فى أنجولا ، وتقود العمليات الحربية وحرب العصابات التى تديرها من الخارج وتسيطر على المناطق المحررة والتى تقع أساساً فى الشمال الشرقى من أنجولا وتحصل هذه الحركة على السلاح والتأييد المادى والأدبى من كثير من الدول الافريقية منها الكونغو وإن كانت احوال الكونغو الراهنة تجعل شحن الأسلحة إلى الحدود أمراً صعباً ، ومن المغرب أيضاً.

ولهذه المنظمات مكاتب دائمة تعمل على عرض الدعاية للحركة الوطنية فى مستعمرات البرتغال والحصول على العون المادى والأدبى للقضية ، وهذه المكاتب فى أغلب العواصم الافريقية من البلدان التى تناصر قضية المستعمرات البرتغالية ، السنغال وغينيا وغانا والمغرب ، وهذه المكاتب يشرف عليها الطلبة والمهاجرون ، والفارين من وجه الارهاب البرتغالى واللاجئون السياسيون .

هذا ، ويجب الأخذ فى الاعتبار عند الحديث عن المقاومة الشعبية ، المنظمات التقدمية الثورية فى البرتغال نفسها . وتقوم هذه المنظمات بنشاط واسع فى لشبونة وفى المدن الكبيرة ، وبعض اللاجئين السياسيين من البرتغال يتخذون مقراً لنشاطهم فى مدريد . وهذه المنظمات تظاهر حركة تحرير المستعمرات وهى تعتبر هذه الحركة وبرنامجها جزءاً من البرنامج الحزبى الذى تسعى لتحقيقه بعد قلب نظام سالازار الفاشستى .

ومما تجب الإشارة إليه ، تلك المساعدات الفعالة التى تقدمها الجزائر من معونات مادية وحربية لتحرير المستعمرات البرتغالية . فقد اندفعت القوات الثورية التى هزمت الاستعمار الفرنسى على أرض الجزائر الثائرة ، بخبرتها فى حرب العصابات ، وفنون المقاومة الشعبية إلى أنجولا ، كما أعلن عن ذلك الرئيس أحمد بن بلا .

كذلك ، فقد كان لمؤتمر القمة الإفريقى الذى عقد فى أديس أبابا فى شهر يونيو ١٩٦٣ ، والقرارات التى اتخذت فيه بتصفية الاستعمار من أفريقيا ، أثر كبير فى تطوير المقاومة الشعبية فى المستعمرات البرتغالية، وتمكن المناضلون من الاستفادة من معونات وخبرات الشعوب الإفريقية المستقلة والمتحررة . وقد قطعت كثير من الدول الإفريقية علاقاتها السياسية مع البرتغال ، ومنها الجمهورية العربية المتحدة .

المنظمات الثورية فى انجولا وموزنبيق والجزر

الحركة الشعبية لتحرير انجولا : Movimento Populär de Librtaco de Angola (M. P. L. A.)

تأسست كحركة سرية عام ١٩٥٧ وذلك باتحاد عدد من المنظمات الصغيرة فى منظمة واحدة ، ومنذ عام ١٩٥٣ كانت المنظمات الصغيرة نشيطة فى طلب حق تقرير المصير لأنجولا .

ومنذ تأسيس الحركة الشعبية انتشر نفوذها من العاصمة لواندا إلى باقى أجزاء البلاد ، وقسمت أنحاء أنجولا إلى ٣٠ منطقة تقود كل منطقة لجنة سرية ، وقد اشترك فى الحركة الشعبية نفر قليل من الأوربيين الداعين للحرية (وقد حوكم منهم فى عام ١٩٥٥ بتهمة تهديد وحدة البرتغال) ، وفى ٨ يونيو نظمت الحركة الشعبية مظاهرة قوامها ألف شخص عند اعتقال الدكتور أوجستينو أحد زعماء الحركة ، وزعماء الحركة المسجونين الآن فى أنجولا وفى البرتغال هم أليدو ماكادو رئيس الحركة ، دكتور أوجستينو نليتو كارلوس أنيسيتو ، فييرا دياس ، أندرية فرانكو دى سورا وغيرهم .

وفى يناير ١٩٦٠ شهد مندوبون من الحركة الشعبية مؤتمر الشعوب

الافريقية الثانى فى تونس حيث الجبهة الافريقية الثورية المتحدة للتحرر الوطنى .

Frents Revolucionaria Africana para a Indeperdercia Nacional بالتحالف مع منظمات أفريقية أخرى فى مستعمرات البرتغال الافريقية، هى حزب التحرر الوطنى الافريقى فى جوان: حركة الاستقلال الوطنى فى أنجولا ، والحركة المعادية للاستعمار .

وقد افتتحت الجبهة الشعبية لتحرير أنجولا مكتبا فى كوناكرى ، ثم مكتبا آخر فى لندن فى عام ١٩٦٠ ، ويرأس الحركة الآن بعد سجن الزعيم ماكدو ، وماريودى اندرارى وسكرتيرها العام فيرباتو كروز . وبرنامج الحركة الأدنى يتلخص فى طرد الاستعمار البرتغالى ، وبرنامج أقصى هو توزيع الأراضى على المعـــدمين وتاميم الصنـاعات الرئيسية وإلغـاء الامتيازات الممنوحة للاستثمارات الأجنبية ، والقضاء على جميع أنواع التمييز العنصرى ، وتطبيق الديمقراطية وحق التصويت العـام ، وإلغـاء البطاقات وتحقيق حرية الانتقال والتعبير والديانة والصحافة ، كذلك فى برنامج الجبهة تشجيع التعاونيات ، ورفع مستوى معيشة الشعب والعمل على اعادة المهـاجرين وتعويضهم . وفى البرنامج اصرار على الوحدة الافريقية والتعاون مع الوطنيين المجاهدين من أجل الاستقلال ، خاصة فى مستعمرات البرتغال .

اتحاد شعب انجولا :

UNIAO DAS POPULACOES DE ANGOLA (U.P.A.)

تكون كحركة سرية تسعى لاستقلال انجولا عام ١٩٥٤ ، واتخذ مركزه فى ليوبرلدفيل عاصمة الكونغو تحت زعامـة هولدن روبرتو (او — جيلمور كما يعرف بين المكافحين) وهـــو حزب يستوعب الفلاحين ومنطقة نفوذه فى شمال أنجولا ، وقد نظم هذا الحزب انتفاضة

مارس ١٩٦١ وأرهب المستوطنين البيض فى الجزء الشمالى من أنجولا حتى فروا بأعداد كبيرة ، وأعقب ذلك حركة قمع وحشية من جانب السلطات البرتغالية استخدمت فيها الطائرات مما أدى لمصرع ما يزيد عن ٢٠ ألف انجولى فى المنطقة الشماليه . ويضم هذا الحزب أوروبيين أيضا ، وقد كان بين من اعتقلوا فى يونيو ١٩٦٠ بتهمة تهديد سلامة الدولة بالمناداة باستقلال انجولا سبعة من الأوروبيون .

الاتحاد الوطنى لعمال انجولا : UNIAO NACIDNAL DOS TRABALHADORES DEANGOLA (U. N. T. A.)

تكون عام ١٩٥٤ أيضا كمنظمة نقابية للعمال الانجوليين ، سرا طبعا ، وهو يلعب دورا طليعيا بارزا فى الحركة الوطنية . والاتحاد ينتمى الى (مؤتمر المنظمات الوطنية لمستعمرات البرتغال) .

مؤتمر المنظمات الوطنية لمستعمرات البرتغال :

تكونت لجنة دائمة من ممثلى المنظمات المكافحة ضد الاستعمار البرتغالى فى كل من افريقيا وآسيا عقب المؤتمر الذى عقد فى الدار البيضاء فى ابريل عام ١٩٦١ ، حضر المؤتمر ١٤ مندوبا من أنجولا وغينيا البرتغالية والرأس الاخضر وجزر سان تومى وموزنبيق ، وشكل هؤلاء لجنة تنسيق للنضال الوطنى على نطاق جميع المستعمرات البرتغالية ، ويشترك فيه مندوبان من كل مستعمرة برتغالية ، وينظم التعاون بين المنظمات المكافحة ضد الاستعمار البرتغالى جهاز دائم مسئول أمام المؤتمر .

حزب موزنبيق الاتحادى الوطنى الديمقراطى :

UNIAO DEMOCRTICA NATIONAL DE MOZAMBIQUE UNDENANO

يرأسه ادلينو جوامبي ADELINO GWAMBE ، وأهدافه :

١ — المطالبة بحق تقرير المصير .

٢ — إلغاء نظام العمل الاجبارى .

٣ — إلغاء جميع الامتيازات وقوانين التفرقة .

٤ — توطيد مبادئ المساواة فى الأجر للعمل المتساوى ، وفى فرص التعليم والعمل .

٥ — العمل — إلى جانب الحركات التحريرية الأخرى على توطيد السلم وتأييد قضايا التحرر فى أفريقيا والعالم .

دكتور انتونيو اعستنيو نتو : Dr. Antoni Agestinho Neto

ولد فى سبتمبر ١٩٢٢ بأنجولا ، أبنجو بأنجولا ، وأكمل تعليمه الثانوى فى لواندا العاصمة ، قام بين ١٩٤٤ — ١٩٤٧ فى العمل على خلق جمعيات ثقافية (ما دامت الحركات السياسية محرمة) فى لواندا بينما كان يعمل موظفاً بوزارة الصحة .

وفى عام ١٩٤٧ التحق بجامعة موميرا بالبرتغال لدراسة الطب ، نشرت له خلال هذه الفترة عدة أشعار وطنية . وقد انخرط فيما بعد فى حركة الشباب البرتغالى فى عام ١٩٥٥ واعتقل لاشتراكه فى المظاهرات وقد أمضى الفترة ما بين ١٩٥٥ إلى ١٩٥٧ بين سجون البرتغال لميوله السياسية .

فى عام ١٩٥٨ تخرج كطبيب ، وفى نفس العام ساهم فى تأسيس حركة مناهضة الاستعمار M.-A. E. التى بدأت فى اشبونة .

وفى عام ١٩٥٩ عاد إلى أنجولا حيث عمل كطبيب حتى اعتقاله عام ١٩٦٠ . وعندما نظم أهل مدينته مظاهرة احتجاج على اعتقاله قمعها البوليس البرتغالى وأحرق القرية .

وقد أعقب اعتقاله من قبل البوليس البرتغالى احتجاج فئات كثيرة فى أنحاء العالم ، منها العريضة التى نشرت بجريدة « التيمز اللندنية » فى أكتوبر ١٩٦١ ، ووقعها عدد من المؤلفين والكتاب الانجليز محتجين على نفيه إلى جزيرة سانتا أنطوان ، من بينهم البروفيسور س. واى. لويس ، دوريس نستج ، أريس موردوك ، وجون أوزبورن .

هولدن روبرتو : Holden Roberto

ولد عام ١٩٢٥ فى مدينة بان سلفادور فى شمال أنجولا ، تلقى تعليمه الثانوى فى الكونغو (البلجيكى) والتحق بالعمل فى وزارة المالية فى ليوبولد فيل ويوكانو . ألف عام ١٩٥٤ — بالاشتراك مع ٦ من أصدقائه — حزب اتحاد عموم شعب أنجولا ، وقد اشترك فى المؤتمر الأول فى أكرا عام ١٩٥٨ والدار البيضاء عام ١٩٦٠ . والدار البيضاء عام ١٩٦٠ .

وقد التقى بكوامى نكروما ، وباتريس لومبا فى أكرا ونشأت بينه وبينهما صداقة وثقة . وفى الدورة الرابعة عشر للجمعية العمومية للأمم المتحدة ، وفى مؤتمر الدول الإفريقية المستقلة بأديس أبابا (يونيو ١٩٦١) صرح على الملأ أن حزب اتحاد شعب أنجولا هو المسئول عن حوادث منتصف مارس ، وأنه — أى روبرتو نفسه — هو الذى كان يدير هذه العمليات من مكتب صغير بشارع روما بليوبولد فيل .

اليدو قومى الفيس ماكادو : Ilido Tome alves Mochado

ولد عام ١٩١٥ فى لواندا ، وهو من قبيلة كيمبند Kumbemdi أحد أقوى زعماء (African National) — أسست عام ١٩٢٩ — وقد أسس مع ميرو بنتودى أندريد ، والدكتور ناتو ، الحركة الشعبية

لتحرير أنجولا (M. P. L. A.) عام ١٩٥٧ ، وكان أول رئيس لها .

اعتقل عام ١٩٥٩ خلال زيارته للشبونة وأعيد إلى لواندا حيث لا يزال معتقلا حتى الآن بتهمة الخيانة العظمى ومعه ٥٦ آخرين ، وهو الآن نائب رئيس حزب الـ M. P. L. A. .

المهاجرون :

لقد كان الاستعمار البرتغالى سبباً فى هجرات ضخمة قام بها الأهالى هرباً من الضغط والبؤس والمهانة فى الوقت الذى ضرب فيه الاستعمار فى أوطانهم ضربة مزدوجة جعلت من المستعمرات إمكانيات للاستغلال والاستيطان معاً .... سهل هذا الأمر أن نسبة الوفيات ترتفع بشكل مخيف للأسباب التى ذكرتها وأهمها سوء التغذية والحالة الصحية وعمليات القمع والحرب الاستعمارية ، مضـــافاً إلى ذلك عمليات الهجرة من وجه الإرهاب .

هذا ، ويؤلف نظام السخرة وتصدير الأيدى العاملة فى ظروف منهكة أحد عوامل الفقر الأسكانى فى مستعمرات البرتغال أيضـا ، وعليه فإن مشاريع التوطين تتم بسهولة وبساطة يسندها القانون والقمع والمطـاردة والجباية . . الخ .

إن تنظيمات المهاجرين هذه على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للحركة الشعبية فى الداخل ، ذلك أن الاستعمار البرتغالى قد ينجح طوال سنوات طويله فى ضرب حصار فولازى من العزلة حول المستعمرات ، وأن الدعوة لقضية استقلال المستعمرات البرتغالية فى أفريقيا هى من أهم عناصر الكفاح ضد الاستعمار وبالرغم من أن البرتغال ترفض كل محاولة للتدخل فيما تسمية بشئونها الداخلية استنادا على الزعم القائل بأن انجـولا وموزنبيق وباقى

المستعمرات ما هى إلا حدود أقليمية ، وهى حسب الدستور البرتغالى جزء لا يتجزأ من البرتغال ، وإذن ليست ثمة قضية تطرح بالنسبة لهذه الأقاليم إلا كما تطرح قضية خاصة بضواحى لشبونة . وفى مواجهة منطق النعام هذا ، تشتد سواعد مقاومى نظام سالازار داخل البرتغال نفسها وفى المستعمرات . وتؤلف المنظمات الخارجية عناصر مقاومة خطيرة تشمل أساسا المنفيين من الوطنيين والهاربين من وجه البوليس البرتغالى .

وتزعم البرتغال مكابرة ، أنه ليست هنالك أسباب لمقاومة نظامها فى المستعمرات التى تصر على اطلاق صفة أقاليم عليها ، فالأفريقيون هناك فى رأيها ، « سعداء » ولا يفكرون فى المطالبة بالاستقلال ، أما الذين يثيرون الشعب فيهم عناصر غريبة من أصحاب الأفكار الهدامة ، ومن الشيوعيين الموالين لموسكو . أن المفهوم البرتغالى لكلمة قومية التى يرددها الأفريقى اليوم ، والتى يعجب لها سالازار أشد العجب كما لو كانت تقليعة أو بدعة هذا المفهوم يمكن أن يطابقه مفهوم فرنسا للقومية المغربية مثلا ، وهى طبعا مدارس تقليد تنظمها رواسب ومقومات واحدة مصدرها الفهم السقيم بأن الأفريقى يستطيع أن يعيش تحت شجرة ، ولا تؤثر فيه تقلبات الجو وهو لا يقوى على أكثر من وجبة يومية واحدة وهذه الوجبة ليست بالضرورة محتوية على جميع العناصر الغذائية ، وهو مع ذلك يستطيع أن يقدم مجهوداً عضليا مدهشا إذا ما هو سوس على الصورة التى يفهمها ولا يستجيب إلا لسواها .

إنه إذن من عنصر مخالف لعنصر الرجل الأبيض ، وعلى أى حال فليس هناك دليل « واحد » على أن هذا العنصر متفرق على الأبيض أو حتى مساوله وأن مسألة تسويس هذا الأفريقى حتى يصبح مخلوقا مفيدا للاخرين ولنفسه أيضاهى مسألة يجب أن تكون بيد الأبيض ، فإن المسائل المتعلقة بالفكر هى أيضا مبادرات أوروبية فليس هناك ما يثبت أنه كانت

لهؤلاء القوم حضارة فكرية فى يوم من الأيام ، وأن كلمة القومية هى مفهوم حديث أدخله الأوروبى إلى أفريقيا ، وأن الذين يتشدقون به هم جماعة من الديماجوجيين Demagoesues تلقوا علومهم فى العواصم الأوروبية ، وهم عالميا فاسدون ولا ينتمون الى الكتل الجماهيرية ، بل إنهم فى قرارة أنفسهم أشد احتقارا للكتل السوداء من الرجل الأبيض . وأن كلمة قومية هى سلاح يشهره هؤلاء المزيفون فى وجه عقدهم وأزماتهم النفسية التى تؤرقهم بالحاحها على ذواتهم بأنهم من هذا الجنس المضطهد الذين يؤمنون فى قرارة أنفسهم بأنه عنصر دون . أن هؤلاء الديماجوجيين ليسوا على أى درجة من الإصالة ولا ينادون بمبادئهم بمحض مبادرتهم ، وأنهم أدوات فى أيدى أعداء البرتغال غذت بعض الجهات فيهم هذه النزعات الخطرة لإحراج البرتغال أساسا بخلق برازيل أو فنزويلا أخرى والبرتغال لا تريد فنزويلا أو برازيل جديدتين ، وأن لها اليوم عشرات الأصدقاء والوسائل والمؤسسات المصنوعة أساسا لمواجهة كل من يستجيب لهذه الشعارات الزائفة السخيفة الى حد بعيد .

ومثل هذه المظاهرات غير مدهشة ، ذلك أن هذه الأفكار ليست غريبة على الانسانية ، فتاريخ الغزو الأسبانى أو البرتغالى لأمريكا اللاتينية يحمل صورا كثيرة دميمة ومشابهة لمثل هذه الصور التى تفاخر بها البرتغال وتتباهى اليوم بعرضها على العالم المشمئز الممتعض . وفى تاريخ الاستعمار الأوروبى الحديث ملامح مشابهة أيضا . . ووثائق دفاعية لمواقف مطابقة لموقف البرتغال . إن فرنسا مثلا ، لا يمكن أن تختلف فى مفهومها «للقومية» عن مفهوم البرتغال فيما يتعلق بالأفريقى وبالقومية الأفريقية ، وفيما يسمى بالوصاية الأوروبية بحكم « التقدم الأبيض » على الأفريقى .

وليس ثمة ما يرد به على هذه المكابرة السخيفة ، وهذا الافتراء المثير للغثيان الآخذ بالتلاشي حتى الموت سوى مؤلف فرانز فانون Franz Fanon الذي هو اختراع أوروبي خلقته أوروبا دون أن تدري وصدرته إلى كتل عريضة من الجماهير الإفريقية بلا وعي تام حتى إذا ما أفرخ وارتد العنف مجدداً إلى صانعيه ذعر الأوروبي المتمدين الرقيق وامتعض لوحشية هؤلاء الهمج ورفع أصبعه مؤكداً اتهامه القديم بأن هؤلاء القوم « دون » ولا يسمون كثيراً عن أصدقائهم حيوانات الأدغال وكواسرها ، وأنه محق ومطالب بما فعله لأجل تهذيب هؤلاء الهمج ، وأن الاستعمار هو رسالة روحية مسيحية بالمكان الأول ، وهي رسالة إنسانية بالتأكيد .

رد الفعل الناشىء لحركات التحرير

تحت وطأة الظروف الخانقة التي تجد البرتغال نفسها فيها بسبب تزايد الضغط عليها من الخارج ومن الداخل ، وبسبب المعطيات الجديدة الآخذة في التعاظم يوما بعد يوم ، وبسبب التمزق والتشقق الذي لحق ستار الصمت الذي ضربته البرتغال حول مستعمراتها في أفريقيا طوال خمسة قرون ، وبسبب ترجح ميزان القوى لصالح قوى الاشتراكية والسلم في العالم ، بسبب هذه الملامح التاريخية لعصر جديد ، ما عادت البرتغال تملك أسباباً لخداع العالم عنها ، وهذا أمر متوقع ، تكابر وتناضل في سعار للحفاظ على أرض صلبة تحتها .وما دام جميع مقومات نظام ، وأيديولوجيات ومدارس تفكير بكاملها عذتها وسندتها واتكلت عليها واحتمت بها وناصرتها ، ما دامت هذه جميعها قد انهارت وأصابها الصدع وأرهصت بفناء أكيد ، فان البرتغال تستميت اليوم ، وهذه أيضاً من معطيات العصر الجديدة والرائعة . . إستماتة قوى البغي في الدفاع عن مؤسساتها وكيانها جميعا . . الدفاع . . إنها اليوم في موقف دفاع ، وكانت دائما هجومية

عدوانية فى موقف الهجوم المتواصل .. الهجوم والتغول والاستبداد ، جميعها صلاحيات ومواقف فقدتها هذه العناصر إلى الآن وما من سبيل إلى انقاذها ، وفى هذا السبيل تقوم البرتغال فى المستعمرات بإعداد نفسها لمعركة يائسة لم ينفعها فيها أنها :

١ — عقدت « معاهدة سرية » مع اتحـاد جنوب أفريقيا وبعض القوى الاستعمارية الأخرى .

٢ — قامت بمحاولات فاشلة مع أفريقيا البلجيكية والوسطى (أوراندا أوراندى ، والمجموعة الفرنسية) لتشكيل نوع من الاتحاد الفدرالى ينظم عملية الاستقلال لهذه الأقاليم الافريقية بصورة أكثر تسللا ومواربة .

٣ — أعطت امتيازات جديدة وواسعة لرأس المال الأوروبى — غير البرتغالى وخاصة الأمريكى والألمانى والهولندى — والبرتغال فى ذلك لا ترهن مستقبل البلاد التى تحتلها وحسب ، وإنما تسعى أيضـا للحصول بهذه الوسيلة على أسلحة لقمع الإفريقيين من هذه الدول مقابل هذه التسهيلات ، والامتيازات التى تمنحها لهم من مستقبل أفريقيا .

يقول وزير برتغالى ، وهو أحد حملة عدد خيالى من أسهم الشركات الاستعمارية فى أنجولا .

« يجب أن نلاحظ أنه ما من شىء يمكن عمله داخل البرتغال اليوم ما لم نحافظ ونحم حقنا فى حدودنا عبر البحار » .

وحكومة سالازار تروج لهذا المفهوم بين شعب البرتغال وتدلل عليه بمناسبة وبغير مناسبة ، وتؤكده حتى تضمن اشتراك الشعب فى حرب استعمارية جديدة عن طريق ربطه بإيهامه بأن مصالحه مرتبطة بهذه الحرب بينما تنطلق فى تدعيم قواتها البحرية والجوية بإمدادات احتياطى الجيش

فى أنجولا وغينيا والموزانبيق وتقوم اليوم حركة إحياء للعسكرية البرتغالية وتطويرها على نحو لم يكن له مثيل من قبل ، فالاستراتيجيون يرسمون خطط العمليات الحربية المقبلة فى إفريقيا وتقول The Military Review فى عددها الثانى عشر ، ديسمبر ١٩٥٩ ، فى مقال بعنوان « الدفاع عن موزنبيق والحرب الثورية » .

« إن المعركة التى ستواجهها باصطدام البيض والسود فى موزانبيق معركة سوف تكون انتفاضة تمرد من جانب الكتل السوداء . وفى مواجهة هذه الاصطدامات المتوقعة لا يمكن أن نقيد أنفسنا بالإجراءات البوليسية ضد المتمردين ، بل يجب أن تكون معالجتنا لذلك شاملة وعامة فى جميع المجالات ولذلك يجب أن نمارس أربع أشكال من العلاج .. عسكرية وسيكولوجية واجتماعية وسياسية » .

والبرتغال تستغل عضويتها فى حلف الأطلنطى لتحصل على السلاح الذى تستعمله ضد الافريقيين ، وتزعم أن هذه المنظمة خلقت أساسا لحماية الاستعمار البرتغالى .

وكان الضباط البرتغاليون يدربون خارج المستعمرات مع القوات الاستعمارية الفرنسية . والبرتغال تعتمد كثيرا على المساعدات التى تأتيها بطواعية من الدول الأخرى « الصديقة » وفى الامم المتحدة تصوت البرتغال دائما الى جانب التفرقة العنصرية ، والاستعمار يأمل أن تبادلها البلاد التى تمارس أنظمة مماثلة التأييد . ومن البديهى أن تكون جنوب افريقيا على رأس هذه البلاد التى هى مثل البرتغال الاعلى ، وأن البرتغال كثيرا ما تتغنى بالتجربة الاوروبية فى جنوب افريقيا وتدلل على نجاحها . وجنوب افريقيا بينما تمثل حلم البرتغال ، تمثل رعبا وكابوسا للافريقيين فى مستعمرات البرتغال ، وقد سمعت أحدهم يقول :

إن حل مشكلة جنوب افريقيا هو مسئولية كل افريقى ، وهى بدون وعى كل افريقى بهذه المشكلة كاملا . . مستحيلة الحل ، إنها جرح افريقيا النازف دائما .

إن البرتغال اليوم هى من أصدق أصدقاء اتحاد جنوب افريقيا لأسباب كثيرة ؛ ويعزى هذا التعاطف أيضا الى كون اتحاد جنوب افريقيا يمثل الزبون الامثل لتجارة الايدى العاملة ، وهى بهذا أهم مصادر العملة الاجنبية بالنسبة للبرتغال ، كما قلنا ، وهى لولا تعاطفها سياسيا مع البرتغال ماسهلت أو ساعدت على ترويج مثل هذه التجارة العجيبة .

وهذه الوضعية تعكس حقيقة جديدة من مساوىء مثل هذه الانظمة التى لا تقف استهانتها بالآدميين عند حد .

خلاصة

وبعد . . لعل من محاسن الاستعمار البرتغالى أنه جعل بفعل القهر الاقتصادى (نظام العمل الاجبارى بالذات الذى ورط المستعمر فى عمليات مستطيلة من انهاك بشرية الافريقى ، ودفعه للحفاظ على سيطرة الرجل الابيض لاثبات انحطاط الافريقى بكل الوسائل حتى يبرر استغلاله واضطهاده ، ذلك أنك لا تستطيع أن تجد شبيها له ، ومن ثم جاءت التفرقة العنصرية ، وهى أحد وجوه ذلك القهر) . أقول ان الاستعمار بفعل القهر الاقتصادى والاجتماعى قد خلق من الشعوب الافريقية المستعمرة شعوبا تنعدم فيها الرواسب الطبقية ، والفوارق الاجتماعية الى الحد الأدنى ، فحتى المولدين الذين يتباهى الاستعمار البرتغالى بهم على اعتبار أن وجودهم دلالة على التطور نحو المجتمع الذى تنعدم فيه الفوارق وتختلط فيه الاجناس الذى تبشر به البرتغال ، حتى

هؤلاء لا يؤلفون عددا يمكن أن يجعل منهم طبقة .. فهم لا يتعدون ٣٠ ألف خلال ٥٠٠ سنة من تواجد البيض والسود جنبا الى جنب على رقعة جغرافية واحدة .

إن المستعمر بالرغم من جنونه فى السعى وراء الربح والمكاسب ، وجشعه فى الحصول على ثروات الارض واستفراده بها ، لم يملك إلا عمليات السطو والاستيلاء ، فلم يملك ابادة الافريقى ابادة تامة ، ولم يفلح خلال عمليات انهاكه أن يصل بذلك الى حد الموت ، لقد كان مضطرا إلى ان يترك فيه من الرمق ما يكفى لان يظل صالحا للاستعمال .» وهو ايضا لم يفلح خلال عمليات القمع التى كانت تثقب خلالها شفاه المتمردين ، وتسلخ آذان الاسرى ، وتقطع أيدى الساخطين ، وتبقر بطون الحوامل من باب التسلية ، وعلى سبيل الطرافة ، فى الكونغو ، وفى الكاميرون والجزائر كما فى فنزويلا والبرازيل من قبل .. لم تنجح عملياته جميعا إلا فى توكيد مقدرة المستعمر على اضطهاد نفسه بنفسه .

غير ان هذا القهر السياسى والاقتصادى منح الافريقيين حسا ديمقراطيا وذوقا خاصا للمساواة . حسا عميقا وليس شعارا زائفا ولن يقبلوا بأقل من ذلك عند استقلالهم ، لقد خلق الاستعمار نتيجة لاحتكارات الرأسمالية طبقة من العمال الذين ترتبط مصالحهم بصورة فريدة بانهاء الاستعمار ، والرأسمالية ، مما جعل الافريقى غير قادر ، ولا يملك قبول نظام أقل من الاشتراكية مقابلا .. وهكذا فإن «الرأسمالية» لا تحمل عوامل فنائها فى داخلها وحسب ، وإنما أيضا تؤكد حصاد النظم الجديدة .

فأولئك العمال ، وكلهم يكرهون الاستعمار بصورة مطلقة، وهم ليسوا مع ذلك قوما من الحساد يتملكهم جشع دنىء ، وإنما هم القاعدة الجذرية

الثورة .... ذلك أنه ليس لهم حتى أجور يساومون عليها . هم كنوع فريد من العمال المسخرين أن يفقدوا مطلقا سوى قيودهم ، كذلك المزارعون الذين طردوا من أراضيهم ، ورجال القبائل المعدمين ، كلهم حلفاء فى جبهة واحدة آلت على نفسها أن تشيع الاستعمار إلى لحده الأخير.

إن أى انتصار على قوى الاستعمار والرأسمالية الاستغلالية هو فى المصلحة المباشرة لهذه الكتل الجماهيرية التى ينتظمها هدف واحد دائم هو إنهاء الاستعمار .

وإذن فإن الاستقلال سيأتى إلى مجتمع أفريقى ذى قابلية كاملة، ورغبة تامة لتحقيق عدالة اجتماعية لجماعات تنعدم بينها الرواسب والعقد إلى الحد الأدنى وترتفع فيها التلقائية المعافاة إلى الدرجة القصوى .

جماعات بريئة نظيفة كأطفال ولدوا حديثاً ، تنمو بصحة جيدة معفاة من كثير من أمراض المجتمعات الطبقية المنقسمة على ذاتها .

وبعد مرة أخرى .. فلنردد مع فرانز فانون ..

« هيا بنا يا إخوتى نخلق إنسانا جديداً » .

وفانون يعنى انسانا عالميا وهو حصاد تجربة « العالم الثالث » أفريقيا المستعمرة التى تكتشف نفسها اليوم ، وتستيقظ لتمنح العالم مثلا جديدة أكثر أصالة . . أفريقيا المستفزة على مدار سنوات طوال ، أفريقيا الصابرة على المهانة واليأس ، والمصابرة على خلق انسان جديد ، بسبب ذلك جميعا أوربما بالرغم من ذلك جميعا .

أن تصفية الاستعمار ، وخلق « أمة أفريقية » ، وتمزيق القناع المزيف عن وجه الحياة الجميل . .إن الغاء الاستعمار هو الغاء للمضطهدين والمضطهدين معا . . « إن نوعنا الانسانى عندما يتم صنعه فى يوم من الأيام لن يتحدد

كمجموع لسكان الأرض ، وإنما كوحدة لا نهائية للتبادل المشترك .

وصنع هذا النوع الجديد من الانسان هى مسئولية كل أفريقى وكل آدمى ، إنها مسئوليته حيال نفسه ، وحيال أمته . . وأن اللامبالاة هى فى الواقع تواطؤ مع أعداء الطيب والخير من الأشياء ، وهى فى مستوى الخيانة نفسها .

وأن الخير والجمال والحياة البشرية نفسها تفقد قيمتها ومعناها ما لم تختف أحزان العالم ، ويختفى الاستعمار . فلنعمل للحرية ، وللرخاء وللسلام فى أفريقيا ، وفى العالم .

ملحق

المادة الثالثة والسبعون من ميثاق الأمم المتحدة

اعلان بشأن الممتلكات التى لا تحكم نفسها

إن أعضاء الأمم المتحدة المسئولة أو التى تأخذ على عاتقها مسئولية إدارة ممتلكات لم تصل شعوبها إلى القدر الكامل من الحكم الذاتى تعترف بالمبدأ القائل بأن مصالح سكان هذه الممتلكات تأتى فى المرتبة الأولى . كما أنها تقبل كأمانة مقدسة فى عنقها الالتزام بالنهوض بخير شعوب هذه الممتلكات إلى أقصى حد فى إطار نظام السلم والأمن الدوليين الذى وضعه هذا الميثاق . وللوصول إلى هذا الهدف :

(أ) تضمن ، مع مراعاة الاحترام الواجب لثقافة الشعوب المعنية ، تقدمها السياسى والاقتصادى والاجتماعى والتعليمى ومعاملتها معاملة متسمة بالعدل وحمايتها من الشطط فى الأمور .

(ب) تنمى فيها الحكم الذاتى مراعية الأمانة السياسية لتلك الشعوب وتساعدها فى نموها المضطرد فى نظمها السياسية الحرة تبعاً للظروف الخاصة بكل مستعمرة وبشعوبها وبتفاوتها فى مراحل تقدمها .

(ج) تعمل على انتشار السلم والأمن الدوليين .

(د) تنهض بالاجراءات الانشائية للتنمية فتشجع الأبحاث وتتعاون بعضها مع بعض ومع هيئات التخصص الدولية ، حين يكون ذلك من الملائم ، بقصد الوصول عمليا إلى الأهداف الاجتماعية

والاقتصادية والعلمية المبينة فى هذه المادة .

(ﻫ) تقدم بانتظام لسكرتير عام الأمم المتحدة للمعلومية ، مع مراعاة بعض القيود التى قد يتطلبها الأمن والاعتبارات الدستورية ، تقدم المعلومات الإحصائية وغيرها ذات الطابع الفنى المتعلقة بالظروف الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية السائدة فى الممتلكات التى تضطلع كل منها بالمسئولية فيها عدا الممتلكات الأخرى التى تنطبق عليها نصوص الفصلين الثانى عشر والثالث عشر .

وبعـــد ....

اعتقد أن هذا الكتيب كان من الممكن أن يكون أوفى وأكثر تركيزا فى بعض أبوابه . . وقد أحسست فى بعض أطوار اعداده اننى أود أن أنطلق فى التحليل شيئا ما .. غير أن هنالك عقبة تعترض مثل هذه المحاولات .

مشكلة المراجع المتعلقة بافريقيا وقلتها . . فحتى الجاد منها والطيب على ندرته لا يتوفر للتداول لأسباب كثيرة منها ضعف وسائل النشر والرقابة والخ . . ولعل هذه العقبة قد برزت لكل من حاول دراسة افريقيا من أى جانب مؤخرا . .

وقد كانت هناك صعوبة خاصة بالنسبة لهذا الكتيب وهى عامل الزمن . .

وكنت قد وعدت نفسى بأن أحاول أن أفعل ما استحق به صداق رفاق مناضلين التقيت بهم فى مؤتمر الكتاب الآفرواسيويين الثانى ف فبراير الماضى وقد انفعلت بهم كثيرا وهم :

ماريا المادا دولسيا ومارسيلينوس سانتوس (سكرتير عام مؤتم المنظمات الوطنية لمستعمرات البرتغال) واميلكار كابرا (آبل ادجام

هو اسمه القلمى الذى عرف به) وهو سكرتير عام الحزب الافريقى لاستقلال غينيا البرتغالية وجزر الرأس الأخضر . CAPE VARD اميلكار كابرال هو صاحب كتيب (حقائق حول افريقيا البرتغالية الذى قدم له الكاتب الانجليزى الشهير باسيل دافيدسون وهذا الكتيب اعتمدت عليه كثيرا بالاضافة الى المطبوعات الحزبية التى زودونى بها اميلكار تباعا كذلك مقتطفات تاريخية قصيرة عن تاريخ وعلاقات القبائل ترجمتها عن مقالة كتبها ماتوس سيايا خصيصا لكى تكون ضمن مقدمة كان المفروض أن تلحق بهذا الكتيب لولا ظروف معينة — قد ياتى اوان ذكرها بعد . .

ولعل هذا الأوان أن يأتى عاجلا . .

ولعله أيضا من حق القارىء أن يطلع على حقيقة مؤسفة تتصل وثيقا باحدى مشكلات الفكر فى كثير من البلاد بعضها من مخلفات التركة المثقلة . فى الحقيقة هى جزء كبير منها من رواسب وضعية معينة لم تنفض عنا بعد . . وهى مما يمكن ذكره كالعقبة المادية مثلا . ومنها مما لا يمكن ذكره ومنها ما قد يكون بعض القراء قد عاصره ، وهو محزن إجمالا . . إن وضع بهذا النوع يؤكد فيما يؤكد أن وسائل النشر لا تزال كما قدر لها الاستعمار أبان سطوته وتحت رحمته تتوكأ وتنكفى لتزوى بسوء التغذية والانيميا الحادة تحت وطأة ظروف قهرية منها ما هو أخطر بكثير من العقبة المادية واقسى . .

وليس هدف هذا الكتيب سوى رغبة صادقة وحارة فى التغلب على الاحساس بالعجز وبالتقصير الذى خلفه لقائى لهؤلاء الأخوة من أفريقيا البرتغالية .. وهم جميعا يعملون خارج بلادهم منفيين أو باختيارهم هربا من وجه بوليس سلازار الفاشى ومن المصادرة والإبادة ومن جحيم نظام

لا يكتفى باضطهادهم وإنما يقيم جدران عالية من الكبت وانعدام الفرص الديمقراطية جميعا إذ يحاول أن يوصد جميع النوافذ المطلة على العالم فى وجهه بقصد حرمانهم من مخاطبة الضمير العالمى وإخفاء تحركاتهم جميعاً مصادرا حقهم فى تقدير ومشاركة العالم الوجدانية والفعلية .

إن جدار الصمت هذا هو أخطر ما تتعرض له أفريقيا اليوم وبصور متفاوتة بسبب هزال وسائل النشر والأعلام ومعرفة الحقيقة

ولقد عاصرت حادثة ذات دلالة محزنة إذ لم يتعرف ماتوس سيايا (وهو وزير خارجية حكومة انجولا فى المنفى والذى قضى حياته الدراسية فى لشبونة وباريس ولعله لم يطا التراب الأنجولى بعد) لم يتعرف سيايا على أميلكار كابرال لأول وهلة إذ تصوره ، ملون من جــوا . وأميلكار كابرال المناضل — افريقى صرف ولم ير جوا فى حياته .

ومن ثم فإن مؤامرة إضعاف وسائل الإعلام والنشر فى أفريقيا — أو حتى السكوت عليها أو التخلف عن القضاء عليها هذه المؤامرة التى يقوم بها أعداء أفريقيا وبعض من يدعون الوطنية ويتحدثون باسمها هى مؤامرة ضد الفكر البشرى ضد العقل والوعى والضمير .. وإن مأساة أفريقيا فى صميمها مأساة دعاية شيطانية القصد .. تضليل وتعمية وتشويش .. حرب إبادة فكرية وثقافية .. وهذا مما تعرض له الإفريقى والأوربى على حد سواء .. الأوربى العادى المضلل والذى ترتكب جميع جرائم الاستعمار باسمه . قد أوهم فيما أوهم بارتباط مصالحه بنظام الاستعمار بقصد ربطه بهذا النظام وضمان تأييده لما يجرى واشتراكه فيه كلما دعى الحال (فى الحرب وفى عمليات إعادة النظام والخ) ذلك أنه لكى يحصل على صمت لا مبالاة الأوربى ان لم يكن مباركته لجأ الاستعمار كنظام رأسه فى أوربا وقلبه فى أفريقيا (وغيرها طبعا) إلى دغدغة

الضمير الأوربى وطعن الحقائق أمام عينيه وعرضها بصورة دراماتيكية (تدخل فيها الشعوذة أحيانا) قوامها أسطورة زائفة تقول بأن الإفريقى الهمجى (الذى تصوره وتؤكد همجيته الأفلام الأمريكية والدعاية السياحية وغير السياحية عار مدهون بالألوان وأوراق الشجر يرقص أمام نار أبدية فى قلب غابة مليئة بالوحوش الضارية يتقاسم وإياها فريسة واحدة نيئة) وأن نظام الاحتلال الذى يردد بعضهم أنه ضرورة تاريخية هو إنسانى وحضارى ومن ثم فهو ضرورى لهؤلاء الأقوام وأنه (حتى اذا تناهى الى الأسماع من آن لآخر صراخ بشرى أو أنه ألم أو صوت يحتج) أنه من البديهى أن يعالج أمر مدينة هؤلاء الوحوش ببعض الشدة التى يتطلبها اعادة النظام أو على سبيل العلاج القسرى كتناول دواء مر . أى أن الإفريقى يستحق قدره . بل أنه — أى قدره — مما يجب أن يمتن له ..

واذن فان ضحية هذه الدعاية ليس الإفريقى وحده وانما الأوربى أيضا بدرجة ما (لا يجب الاستهانة بها) الأوربى الذى جعل منه بيدقا حقيقيا فوق رقعة شطرنج هائلة واقع تحت وطأة تجهيل مدبرة تضمن صمته وارتباطه بالنظام الرأسمالى الشيطانى الحبائل .. أنه من واجب أفريقيا اليوم أن تنشل العالم من براثن جريمة ارتكبت فى حق جميع الناس جريمة ذر الشك وأسباب سوء القصد هذه الفخاخ الإبليسية .. واجبها أن ترد للضمير والفكر والقلب البشرى عافيته واصالته ونقاءه المبدئى ونوعيته النبيلة .. تجاه عشرات الضلالات والتفاصيل اليومية والتى تحتاج الى معاصرة مطلقة وطاقة يسوعية على الحب كيما توفر للمفكر الذى يعى دوره جيداً أرضاً صلبة ومقدرة على الحكم السليم ومن ثم الانتصار بصلابة وجسارة وعناد لوجه الحياة المشرق — وقضايا الإنسان العادلة ابتداء بالصدق والحرص على المستويات الرفيعة والاستعصاء على التفاهة . وتجاه هذا الواجب تحق عشرات الاجتهادات وأن أهم ما يمكن أن يساعد على اكتشاف الوجه الحقيقى لأفريقيا التقاء الرفاق .. ذلك النشاط

الدافىء الذى يجلو البصر والبصيرة معاً ويصنع القابلية الوافرة والإقبال الحار الذى يؤدى إلى استشراف الحقائق والمعلومات الطازجة .

فالارتباط المباشر بين مناضلى ومفكرى هذه القارة هو من عناصر الانفعالات الجيدة العطاء المجددة للتلقائية السليمة ..

وبعد ..

إن هذا الكتاب هو حصاد هذه اللقاءات. وقد حاولت كما قلت أن أنجزه فى فترة قصيرة .. وكل ما أردته أن يكون مشاركة متواضعة للشعب الإفريقى المناضل فى أنجولا وموزانبيق وجزر الرأس الأخضر وغينيا وساوتومى وكاب فرد فى كفاحه البطولى ضد فاشية سلازار وسادية رجاله وضد الأمبريالية الغربية بكاملها ممثلا فى المادا وكابرال وفى دوس سانتوس كل ما اردته أن تأت هذه المشاركة القلبية فى أوانها ..

وتحية إلى هؤلاء الرفاق الرائعين ذوى القلوب الباسلة .

خديجه صفوت

الخرطوم فى أبريل ١٩٦٢

المراجـــــــع

— حقائق حول أفريقيا البرتغالية		آبل ادجامى (أميلكار كابرال)
— الحضارات الإفريقية		دنيس بولم
— داخل أفريقيا		جون جنثر
— معذبو الأرض		فرانز فانون
— أرفيوس الأسود		جان بول سارتر
— فى مواجهة جبل كينيا		جومو كينياتا
— أفريقيا السياسية	Political Africa	رونالد سيجال
— ملامح شخصيات أفريقية	African Profile	» »
— جرا وميثاق الأمم المتحدة		مطبوعات
— دوريات	African World	

للمؤلفـــة

أفراح آسيا	(١٩٥٨)
رسالة إلى بولين لومبا	(١٩٦٠)

ثم ينشر بعد

الحـــزانى

(مسرحية ذهنية من ثلاثة فصول)	(١٩٦٠)

الآن أو (عزة)

مسرحية من فصلين	(١٩٦٢)

أليكترا

الجزء الأول من

(يوميات بورجوازية كئيبة)	(١٩٦٢)

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف المكتبة

فى أوائل عام ١٩٦٢ بدأت مكتبة الكاملابى بالقاهرة نشاطها ، وذلك لخدمة الكتاب العربى ، والثقافة الانسانية عامة ، والدراسات السودانية خاصة » .

ومكتبة الكاملابى ليست شركة تقف ورائها رءوس الأموال الساعية إلى الربح ، وانما هى مؤسسة ثقافية تهدف إلى إحياء التراث العربى فى شتى الميادين .

وقد فتحت مكتبة الكاملابى المجال أمام المؤلفين السودانيين ليساهموا بمؤلفاتهم وتراجمهم فى تزويد المكتبة العربية بأنفس الكتب التى تبحث فى شتى الميادين .

وليس هـــذا المجهود الذى بذلته مكتبة الكاملابى إلا بداية لنشاط متواصل فى خدمة الثقافة العربية عن طريق الكتاب العربى ، وسيستمر مشتعلا ، ولا تكتفى المكتبة بالنشر بل وتساهم بنصيبها مع زميلاتها فى العالم العربى بتوزيع الكتاب العربى على أن توفر لطلاب العلم والثقافة أحدث ما تخرج المطبعة العربية من مؤلفات وبخاصـــة المراجع العلمية الرئيسية وبهذه الجهود الكبيرة الواعية وعن طريق التعاون مع دور النشر فى العالم العربى لتسهم المكتبة فى تحقيق التعاون الثقافى فى أرجائه .

وليس خدمة الدار وفقا على المكتبات والمؤسسات الثقافية فحسب بل تقدم أجل الخدمات للأفراد بتلبية طلباتهم الخاصة من كتب ومجلات.

وان الدار إذ تفخر بالثقــــة التي حازتها من المؤلفـــين والناشرين والموزعين والقراء في العالم العربي تعاهد الجميع على مواصلة السير في الطريق الذي يتفق مع أهدافه وغاياته ترجو الله أن يوفقها إلى المزيد من الجهد في خدمة الثقافة .

مكتبة الكاملابي

لصاحبها محمد الحسن عثمان عبد الكريم الكاملابي

وقد صدر الكتب الاتية

« من سلسلة الدراسات السودانية »

		ص
١ —	المائدة الحمراء ، تأليف الأستاذ الطاهر عبد الكريم	١٥
٢ —	ديوان كوخ الأشواق ، تأليف الأستاذ الهادى آدم	١٥
٣ —	الأدب الشعبي في السودان ، تأليف الأستاذ عز الدين أحمد السليتى	١٠
٤ —	أكواب بابل من ألسنة البلال ، الصاغ محمود أبو بكر	٢٠
٥ —	طائر الليل ، للاستاذ حسن عباس صبحى	١٥
٦ —	سر الدموع ، للاستاذ محمد عثمان صبار	١٠
٧ —	لا . . لن أموت جوعا ، للاستاذ محمد عثمان صبار	٥
٨ —	سلسلة الرحالة والمكتشفين ٢٥ جزء صدر منها ٤ سعر الواحدة	٢٥
٩ —	ستار الصمت ، للاستاذة خديجة صفوت	٢٥
١٠ —	نبضات قلب ، للاستاذ على يوسف	٢٥
١١ —	العبادات للامام المهدى	١٥
١٢ —	دراسة فى الأدب الشعبي ، للاستاذ عبد القادر عوض الكريم	٢٥

وكتب أخرى تحت الطبع .

الكاملابى

مطبعة التقدم
٤٤ شارع الموازى بالمنيرة - القاهرة
تليفون ٢٦٠٢١

ملتزم النشر والتوزيع
مكتبة الكاملابى
بالقاهرة



مطبعة التقدم
٤٤ شارع الموازى بالمنيرة - القاهرة
تليفون ٢٦٠٢١

بص ٢٥